د. صلاح الدين النكدلي

أعلام من مدرسة فقه القلوب

الطبعة الشبكية الأولى
رجب ١٤٣٠هجري
تموز / يوليو ٢٠٠٩ ميلادي
نسخة مزيدة ومنقحة

الناشر : الدار الإسلامية للإعلام

جميع الحقوق محفوظة للدار الإسلامية للإعلام
Copyright © 2009, I.I.D e.V.
All Rights Reserved

© Islamischer Info. Dienst Verlag

العنوان
I.I.D e.V.
P.O.Box: 100810
D-52008 Aachen
Germany

Tel: +49 241-538373
Fax: +49 241-538887

Email: iid@iid-alraid.com
Website: www.iid-alraid.com

1. Auflage, 07.2009

بسم الله الرحمن الرحيم

أعلام
من مدرسة فقه القلوب

د. صلاح الدين النكدلي

الطبعة الشبكية الأولى

رجب ١٤٣٠هـ

تموز/ يوليو ٢٠٠٩م

نسخة مزيدة ومنقحة

الناشر : الدار الإسلامية للإعلام

© Islamischer Info. Dienst Verlag

العنوان

I.I.D e.V.
P.O.Box: 100810
D-52008 Aachen
Germany

Tel: + 49 241-538373
Fax: + 49 241-538887

Email: iid@iid-alraid.com
Website: www.iid-alraid.com

1. Auflage, 07.2009

المحتويات

المقدّمة	4
علي بن الحسين	5
الحسن البصري	14
محمد بن مسلم	20
محمد بن علي	25
ميمون بن مهران	29
وهب بن منبه	34
جابر بن زيد	41
سعيد بن المسيب	44
عروة بن الزبير	46
بلال بن سعد	49
صِلَةُ بنُ أَشْيَم	52

مُقَدِّمَة

عزيزي القاريء

يُنسب إلى مدرسة فقه القلوب علماء أجلاّء كانوا في أعصرهم مصابيحَ هدايةٍ علماً وعملاً .. نفع الله تعالى بهم خلقاً من معاصريهم لا يعدون .. وانتفع بما ورَّثوه أجيال أتت من بعد .. وها نحن في هذه الأيام نشعر شعوراً عميقاً بحاجتنا الكبيرة إلى إحياء فقه تعامل القلوب مع علاّم الغيوب ﷻ .. لكي نقطف ثمار العودة إلى الله عزَّ وجلَّ يانعة خالصة من الدخن والدغل .. وعسى أن يكون جيلنا أهلاً للمساهمة الجادَّة في تجديد أمر الإسلام ؛ تجديداً يؤهل أمتنا لقيادة ركب البشر إلى الخير والرشاد في الحياة الدنيا .. فضلاً عن نيل رضوان الله تعالى يوم يقوم الناس لربِّ العالمين .

وسنرى من خلال ما نختاره من أقوال ومواقف وأحوال هذا الصنف من العلماء ، كيف تمكَّن هؤلاء من خلال صدقهم مع الله تعالى ، ومع أنفسهم ، ومع الناس ، أن يكتشفوا الأمراض التي تفشت في الأمة بعد عصر النبوة والجيل الذي رباه الرسول الكريم ﷺ .. وكيف وضعوا أيدي الناس على أسباب العلل والعلاج .. تجسيداً لقول

المعصوم ﷺ : « **إِنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ؛ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ .. أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْب** » رواه مسلم .

هذا ، وكنت قد كتبت سلسلة مقالات تناولت فيها جوانب من عناية عدد من أعلام التابعين بالتربية القلبية والعملية ، مكتفياً بتقديم ما قرأته عنهم في « البداية والنهاية » لابن كثير رحمه الله تعالى ؛ فمن خلال قراءتي في هذا السفر العظيم وقفت على قصص لطيفة وتوجيهات نفيسة منسوبة إلى أئمة كبار ، فسجلتها لنفسي واخترت لكل قصة ، أو كلمة تربوية ، عنواناً يشير إلى مضمونها ، ويساعدني في العودة إلى الاستفادة منها ، ثم رأيت تقديمها في هذه الصورة التي في هذا الكتاب . وهذا يوضح أنني ما قصدت إلى كتابة ترجمة تفصلية لهؤلاء العظماء ، فهذه المهمة من اختصاص المراجع التي عرَّفت بجيل التابعين رحمهم الله تعالى .

أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يكتب لهذا الجهد القبول ، وأن يوفق المهتمين بتربية الأجيال الناشئة إلى إبراز القدوات الحسنة في تراثنا المشرق بالأعمال الجليلة . والحمد لله ربِّ العالمين .

علي بن الحسين

زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب علمٌ يشار إليه بالبنان في جيل التابعين .. شهد محمد بن سعد أنه « كان ثقة مأمونا » .. وقال الإمام الزهري : « كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين ، وما رأيت أفقه منه ، وكان قليل الحديث ، وكان من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة » . ولا غرابة في ذلك ، لأن زين العابدين يرحمه الله كان يختار العالم الذي يجلس إليه ، ويأخذ عنه ، إذ ليس كل من تحدّث أو كتب أجاد وأفاد .

والقصة الآتية تحمل هذا المعنى الكبير الخطير ، الذي ينبغي أن تستوعبه أجيالنا الظامئة إلى استئناف الحياة الإسلامية ؛ لئلا تضيع أوقاتها الثمينة في غير فائدة ، ولكي تجتنب الآثار الخادعة للعلماء السطحيين في فهمهم للإسلام العظيم ..

تقول القصة : « **كان علي بن الحسين إذا دخل المسجد تخطى الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم . فقال له نافع بن جبير بن مطعم : غفر الله لك ، أنت سيّد الناس تأتي تخطَّى حِلَقَ أهل العلم وقريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود !! .**

فقال له علي بن الحسين : إنما يجلس الرجل حيث ينتفع ، وإن العلم يُطلب حيث كان » .

وأثمر العلم النافع في قلب زين العابدين أخلاقاً فاضلة نشير إلى لُمَعٍ منها داعين إلى إحيائها .. لأنها من فقه القلوب .. وأول ما نذكر من أخلاق هذا الرجل العظيم خلق « **الحلم** » وهو في أدق معانيه : ترك الانتقام للنفس ممن نال منها ، فإذا تجاوز المرء ذلك إلى إغداق الخير على المسيء كان في ذروة أصحاب الخلق القويم .. وفي الحوادث التي سنذكرها دليل على توفر الحلم والعفو والإحسان لدى إمامنا الجليل رحمه الله .

▪ « **خرج زين العابدين علي بن الحسين يوماً من المسجد ، فسبّه رجل ، فانتدب الناس إليه ، فقال لهم : دعوه ، ثم أقبل عليه فقال : ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر ، أَلَكَ حاجة نعينك عليها ؟ . فاستحيا الرجل ، فألقى زين العابدين إليه خميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء** » .

▪ « **نال رجل من علي بن الحسين يوماً ، فجعل يتغافل عنه** –يريه أنه لم يسمعه– **فقال له الرجل : إيَّاك أعني! . فقال له علي : وعنك أُغضي!** » .

▪ « **قال عبد الرزاق : سكبت جارية لعلي بن الحسين عليه ماء ليتوضأ ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجّه ، فرفع رأسه إليها ، فقالت الجارية : إن الله يقول : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾**[1] **، فقال : قد كظمت غيظي ، قالت : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** [2] **، فقال : عفا الله عنك ، فقالت : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾**[3] **، قال : أنت حرّة لوجه الله تعالى** » .

▪ « **وروى ابن أبي الدنيا أن غلاماً سقط من يده سفود**[4] **وهو يشوي شيئاً في التنور على رأس صبي لعلي بن الحسين فقتله ، فنهض علي بن الحسين مسرعاً ، فلما نظر إليه قال للغلام : إنك لم تتعمد ، أنت حرّ ، ثم شرع في جهاز ابنه** » .

ولكن زين العابدين الحليم الصفوح الكريم في كل ما يمسّ شخصه .. كان معظماً لحرمات المسلمين ، منافحاً عن كراماتهم .. وخاصة جيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .. وكان يتمعَّر وجهه إذا وقع فيهم الجاهلون .

▪ « روى محمد بن علي عن أبيه زين العابدين قال : جلس قوم من أهل العراق فذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما ، ثم ابتدؤوا في عثمان ، فقال لهم : أخبروني أأنتم من المهاجرين الأولين الذين ﴿ **أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ... ﴾ [الحشر : ٨] ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم من الذين ﴿ **تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ** ... ﴾ [الحشر : ٩] ؟ قالوا : لا . فقال لهم : أما أنتم فقد أقررتم وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء ، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ ... [الحشر : ١٠] ، فقوموا عني لا بارك الله فيكم ، ولا قرب دوركم ، أنتم مستهزؤون بالإسلام ولستم من أهله » .

وكان من أخلاق علي بن الحسين رحمه الله « **الزهد والكرم** » يدل على تحليه بهما أمران : كثرة تصدقه على أهل الحاجة ، وإنفاقه على صحبه وخلانه . أما الأمر الأول فيشهد له ما قاله محمد بن اسحاق :

▪ «**كان ناس في المدينة يعيشون ، لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم . فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك ، فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم به .**

ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين في الليل » .

---

(1) سورة آل عمران : ١٣٤ .
(2) سورة آل عمران : ١٣٤ .
(3) سورة آل عمران : ١٣٤ .
(4) السَّفُّودُ : عود من حديد ينظم فيه اللحم ليُشوى .

وكان رحمه الله يحث على إخفاء الصدقة ويقول :

« **صدقة الليل تطفئ غضب الرب ، وتنوِّر القلب والقبر ، وتكشف عن القلب ظلمة يوم القيامة** » .

وأما الأمر الثاني .. الإنفاق على الصحب والخلان ، فيدل عليه الخبر الآتي :

▪ « **دخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد يعوده ، فبكى ابن أسامة ، فقال له : ما يبكيك ؟! ، قال : عليَّ دين . قال : وكم هو ؟ . قال : خمسة عشر ألف دينار . فقال : هي عليَّ** » .

ورحم الله زين العابدين على لفتته الكريمة إلى خلق مواساة الإخوان والتكافل .. فقد كان يقول :

▪ « **إني لأستحي من الله عزَّ وجلَّ أن أرى الأخ من إخواني فأسأل الله له الجنة ، وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة ، قيل لي : فإذا كانت الجنة بيدك كنت بها أَبْخَلَ ، وأبخل ، وأبخل !!** » .

واهتمام زين العابدين بالأخلاق كان وراء تحذيره الشديد من أصحاب الخلق الذميم .. وكان يبين أثر « **الصحبة** » على أخلاق المرء .. والصحبة تعني : أن يتخذ الإنســـان من بعض الناس موطناً لأنسه وراحته ، يأوي إليهم ويجعلهم محل سرّه ونجواه .. لذلك ينبغي أن يتخيّر المؤمن الأصحاب الذين يسره أن يتأثر بخلالهم الكريمة .. أما المعاملة مع الآخرين والإحسان إليهم حتى وإن كانوا فاسقين أو غير مسلمين فإنها لا تدخل في معنى الصحبة . وما أروع وأجمع نصيحة زين العابدين لابنه حيث قال له :

« يا بُني لا تصحب فاسقاً فإنه يبيعك بأكلة ، وأقلّ منها يطمع فيها ثم لا ينالها ، ولا بخيلاً فإنه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه ، ولا كذاباً فإنه كالسراب يقرب منك البعيد ، ويباعد عنك القريب ، ولا أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، ولا قاطع رحم فإنه ملعون في كتاب الله . قال تعالى : ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ** ﴾ [محمد : ٢٢-٢٣] » .

وأدرك رحمه الله أن مدح الرجال بما لا يُعلم من حالهم ضرب من الملق تدعو إليه الرغبة في تحصيل مرغوب .. وأن « الفجور في الخصومة » هو الوجه الآخر للملق .. قال سفيان بن عيينة : « **كان علي بن الحسين يقول : لا يقول رجل في رجل من الخير ما لا يعلم إلا أوشك أن يقول فيه من الشر ما لا يعلم ، وما اصطحب اثنان على معصية إلا أوشك أن يفترقا على غير طاعة** » .

❁ ❁ ❁

وكان علي بن الحسين راصداً للغفلة التي رانت على قلوب كثير من الناس .. وقد تمكّنت هذه الغفلة من القلوب ، إلى درجة أصبح التذكير بالآخرة وبأيام الله إنما يمسّ القشرة الخارجية ولا ينفذ إلى أعماق القلوب .. ودليل ذلك أن الحال بعد التذكير والتفكير لا يتغير إلى الأصلح !! . ووضع زين العابدين يده على « **حبّ الدنيا** » المنسي للحق .. وحذّر نفسه والخلق من حبائل الدنيا .. فقد كان رحمه الله إذا مرّت به جنازة يتمثل بهذين البيتين المعبِّرين :

نُراعُ إذا الجنائــز قابلتنـــــا ونلهو حين تمضي ذاهباتِ !!
كروعة ثَلَّــةٍ لمغــار ســبع فلما غاب عادت راتعاتِ !!(٥)

ولهذا كان كثير المحاسبة للنفس .. يدعوها إلى التخفيف من الملذات ، وإلى الإقبال على الطاعات .. ويذكرها بهاذم اللذات « الموت » وبأول منازل القيامة « القبر » .

« روى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الله المقري قال : حدثني سفيان بن عيينة عن الزهري قال : سمعت علي بن الحسين سيد العابدين يحاسب نفسه ويناجي ربه :

يا نفس حتّام إلى الدنيا سكونك ، وإلى عمارتها ركونك ؟! ، أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك ، ومن وارته الأرض من أُلاّفك ؟! . ومن فُجعتِ به من إخوانك ، ونُقِلَ إلى الثرى من أقرانك ؟!

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها محاســنُهم فيهــا بــوالٍ دواثــرُ
خلت دورهم منهم وأقوت عِراصُهم وســاقتهمُ نحــو المنايــا المقــادرُ
تخلَّوا عن الدنيا وما جمعــوا لهــا وضمتهُمُ تحت التراب الحفائــرُ !!

كم خرمت أيدي المنون من قرون بعد قرون ؟ ، وكم غيّرت الأرض ببلائها ، وغيبت في ترابهــا ، ممــن عاشرت من صنوف وشيعتهم إلى الأمارس ، ثم رجعت عنهم إلى عمل أهل الإفلاس .

وأنت على الدنيا مكبٌ منافسٌ لخطّابها فيها حريــصٌ مُكاثــرُ
على خطر تمشي وتصبح لاهياً أتدري بماذا لو عقلت تخاطرُ ؟!
وإن امرءاً يسعى لدنياه دائبــاً ويذهل عن أخراه لا شك خاسرُ!

فحتام على الدنيا إقبالك ، وبشهواتها اشتغالك ، وقد وَخَطَكَ القتير ، وأتاك النذير ، وأنت عما يراد بك ساه ، وبلذة يومك وغدك لاه ، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات ، وعاينت ما حلّ بهم من المصيبات :

وفي ذكر هول الموت والقبر والبلى عن اللهو واللذات للمرء زاجــرُ
أبعد اقتراب الأربعين تربــصٌ ؟ وشــيبُ قذالٍ منذرٌ يا مكابــرُ
كأنــك معنــيٌّ بمــا هو ضائــرٌ لنفسك عمداً ، وعن الرشد حائرُ !!

انظر إلى الأمم الماضية ، والملوك الفانية ، كيف اختطفتهم عقبان الأيام ، ووافاهم الحِمام ، فانمحت من الدنيا آثارهم ، وبقيت فيها أخبارهم ، وأضحوا رمماً في التراب ، إلى يوم المآب :

---

(5) الثَلَّة : جماعة الغنم .

أمسَوْا رميماً في التراب وعُطِّلت مجالسهم منهم وأخلى مقاصــرُ
وحلُّوا بدار لا تزاور بينهــم وأنى لســكان القبور التــزاورُ
فما أنْ ترى إلا قبوراً قد ثَوَوْا بها مسطَّحةٌ تسفي عليها الأعاصر !!

كم من ذي منعة وسلطان ، وجنود وأعوان ، تمكَّن من دنياه ، ونال فيها ما تمناه ، وبنى القصور والدساكر ، وجمع فيها الأموال والذخائر ، ومُلَحَ السراري والحرائر :

فما صرفتْ كفّ المنية إذا أَتَتْ مبادرةً تهوي إليــه الذخائــرُ
ولا دفعت عنه الحصونُ التي بنى وحفَّ بها أنهــارُه والدســاكرُ
ولا قارعــتْ عنه المنيةَ حيلــةٌ ولا طمعت في الذبِّ عنه العساكرُ

أتاه من الله ما لا يُرد ، ونزل به من قضائه ما لا يُصَد ، فتعالى الله الملك الجبار ، المتكبر العزيز القهار ، قاصم الجبارين ، ومبيد المتكبرين ، الذي ذلَّ لعزه كل سلطان ، وأباد بقوته كل ديّان :

مليكٌ عزيــزٌ لا يُــردُّ قضــاؤه حكيمٌ عليــمٌ نافذُ الأمر قاهــرُ
عنى كلُّ ذي عــزٍّ لعــزَّة وجههِ فكم من عزيز للمهيمن صاغــرُ
لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت لعزة ذي العرش الملوكُ الجبابرُ

فالبدارِ البدار ، والحذارِ الحذار ، من الدنيا ومكايدها ، وما نصبت لك من مصايدها ، وتحلَّت لك من زينتها ، وأظهرت لك من بهجتها ، وأبرزت لك من شهواتها ، وأخفتْ عنك من قواتلها وهلكاتها :

ومن دون ما عاينت من فجعاتها إلى دفعها داعٍ وبالزهد آمــرُ
فجــدَّ ولا تغفل وكنْ متيقظــاً فعمَّا قليل يتــرك الدارَ عامــرُ
ولا تطلب الدنيــا فإن نعيمهــا وإن نلت منها غِبُّــه لك ضائــرُ

فهل يحرص عليها لبيب ، أو يُسُّر بها أريب ، وهو على ثقة من فنائها ، وغير طامع في بقائها ؟! ، أم كيف تنام عينا من يخشى البيات ، وتسكن نفس من توقَّع في جميع أموره الممات ؟ :

ألا لا ولكنَّــا نغــرُّ نفوســنا وتشــغلنا اللــذاتُ عمَّا نحاذرُ
وكيف يلذ العيشَ من هو مُوقَفٌ بموقِفِ عدلٍ يوم تُبلى السرائرُ ؟!
كأنا نرى أن لا نشــور وأننــا سدىً ما لنا بعد الممات مصادرُ

وما عسى أن ينال صاحب الدنيا من لذتها ، ويتمتع به من بهجتها ، مع صنوف عجائبها وقوارع فجائعها ، وكثرة عذابه في مصابها وفي طلبها ، وما يكابد من أسقامها وأوصابها وآلامها ؟! :

أما قد ترى في كل يوم وليلة يروح علينا صرفها ويباكـرُ
تعاورنـا آفاتُهـا وهمومُهـا وكم قد ترى يبقى لها المتعاورُ
فلا هو مغبوطٌ بدنياه آمـنٌ ولا هو عن تطلابها النفسَ قاصرُ

كم قد غرّت الدنيا من مخلدٍ إليها ، وصرعت من مكبٍّ عليها ؟! ، فلم تنعشه من عثرته ، و لم تنقذه من صرعته ، و لم تشفه من ألمه ، و لم تُبره من سقمه ، و لم تخلصه من وصمه :

بل أوردته بعد عـزٍّ ومنعـةٍ مواردَ سـوء ما لهنَّ مصـادرُ
فلما رأى أن لا نجـاةَ وأنـه هو الموت لا ينجيه من التحاذرُ
تندَّم إذ لم تغـنِ عنه ندامـةٌ عليه وأبكته الذنوب الكبائـرُ

إذ بكى على ما سلف من خطاياه ، وتحسَّر على ما خلَّف من دنياه ، واستغفر حين لا ينفعه الاستغفار ، ولا ينجيه الاعتذار عند هول المنية ونزول البلية :

أحاطت به أحزانُه وهمومُـهُ وأبلى لما أعجزتـه المقـادرُ
فليس له من كربة الموت فارجٌ وليس له ممـا يحاذر ناصـرُ
وقد جشأت خوفَ المنية نفسُه ترددها منه اللها والحناجـرُ

هنالك خفَّ عُوَّاده ، وأسلمه أهلُه وأولادُه ، وارتفعت البريةُ بالعويل ، وقد أيسوا من العليل . فغمضوا بأيديهم عينيه ، ومد عند خروج روحه رجليه ، وتخلى عنه الصديق والصاحب الشفيق :

فكم موجَعٍ يبكي عليه مُفجَّع ومستنجدٍ صبراً وما هو صابرُ
ومسترجعٍ داعٍ له الله مخلصاً يعـدد منه كل ما هو ذاكـرُ
وكم شامت مستبشر بوفاته وعما قليل للذي صار صائـرُ

فشقت جيوبَها نساؤه ، ولطمت خدودَها إماؤه ، وأعول لفقده جيرانُه ، وتوجع لرزيته إخوانُه ، ثم أقبلوا على جهازه ، وشمَّروا لإبرازه ، كأنه لم يكن بينهم العزيز المفدَّى ، ولا الحبيب المبدى! :

وحلَّ أحب القوم كان بقربه يحثّ على تجهيـزه ويبـادرُ

وشمَّر من قد أحضروه لغسله ووجه لما فاض للقبـــر حافـــرُ
وكُفِّن في ثوبين واجتمعت له مشـــيعةً إخوانه والعشائـــرُ

فلو رأيت الأصغر من أولاده ، وقد غلب الحزن على فؤاده ، ويُخشى من الجزع عليه ، وقد خضبت الدموع عينيه ، وهو يندب أباه ويقول : يا ويلاه واحرباه :

لعاينت من قُبح المنيّة منظراً يهال لمرآه ويرتـــاع ناظـــرُ
أكابر أولاد يهيج اكتآبهم إذا ما تناساه البنون الأصاغرُ
وربة نســـوان عليه جوازع مدامعهم فوق الخدود غوازرُ

ثم أُخرج من قصره ، إلى ضيق قبره ، فلما استقر في اللحد وهيئ عليه اللبن ، احتوشته أعماله ، وأحاطت به خطاياه ، وضاق ذرعاً بما رآه ، ثم حثوا بأيديهم عليه التراب ، وأكثروا البكاء عليه والانتحاب ، ثم وقفوا ساعة عليه ، وأيسوا من النظر إليه ، وتركوه رهناً بما كسب وطلب :

فولوا عليـــه معولين وكلهم لمثل الذي لاقى أخوه محاذرُ
كشـــاءٍ رتاعٍ آمنين بـــدا لها بمديته بادي الذراعين حاسرُ
فريعت ولم ترتع قليلاً وأجفلت فلما نأى عنها الذي جـــازرُ

عادت إلى مرعاها ، ونسيت ما في أختها دهاها ، أَفَبأفعال الأنعام اقتدينا ؟! ، أم على عادتها جرينا ؟! .
عُدْ إلى ذكر المنقول إلى دار البلى ، واعتبر بموضعه تحت الثرى ، المدفوع إلى هول ما ترى :

ثوى مفرداً في لحده وتوزعت مواريثَه أولادُه والأصاهـــرُ
وأَحْنَوْا على أمواله يقسمونها فلا حامدٌ منهم عليها وشاكرُ
فيا عامرَ الدنيا ويا ساعياً لها ويا آمناً منْ أنْ تدور الدوائرُ

كيف أمنت هذه الحالة، وأنت صائر إليها لا محالة، أم كيف ضيَّعتَ حياتك ، وهي مطيتك إلى مماتك ؟! ، أم كيف تشبع من طعامك ، وأنت منتظر حِمامك ؟! ، أم كيف تهنأ بالشهوات ، وهي مطية الآفات :

ولم تتزود للرحيل وقـــد دنـــا
وأنت على حال وشيكٍ مسافرُ

فيا لهف نفسي كم أُسِّوفُ توبتي

وعمريَ فانٍ والردى ليَ ناظرُ

وكل الذي أسلفت في الصحف مثبتٌ

يجازي عليه عادل الحكم قادرُ

فكم ترقع بآخرتك دنياك ، وتركب غيّك وهواك ؟! ، أراك ضعيف اليقين يا مؤثرَ الدنيا على الدين . أبهذا أمرك الرحمن ؟ ، أم على هذا نزل القرآن ؟ . أما تذكر ما أمامك من شدة الحساب وشرّ المآب ؟! ، أما تذكر حال من جمع وثَّمر ، ورفع البناء وزخرف وعمَّر ؟ ، أما صار جمعهم بوراً ، ومساكنهم قبوراً ؟! :

تخرِّب ما يبقى وتعمرُ فانيـــاً فلا ذاك موفورٌ ولا ذاك عامرُ!
وهل لك إنْ وافاك حتفُك بغتةً ولم تكتسبْ خيراً لدى الله عاذرُ ؟
أترضى بأن تفنى الحياةُ وتنقضي ودينُك منقوصٌ ومالُك وافرُ ؟!

❁ ❁ ❁

ونختم حديثنا عن زين العابدين رحمه الله بكلمات نيِّرات فيهن عبرة ودرس لمن تدبر :

❁ **قيل لزين العابدين من أعظم الناس خطراً ؟ . فقال : من لم يرَ الدنيا لنفسه قدرا .**

❁ وقال رحمه الله :

- **الفكرة مرآة تُري المؤمن حسناته وسيئاته .**
- **فَقْدُ الأحبة غربةٌ .**

❁ قال المدائني : سمعت سفيان يقول : **كان علي بن الحسين يقول : ما يسرني أن لي بنصيبي من الذل حُمُرَ النعم .**

❁ وكان رحمه الله يدعو بهذا الدعاء العظيم في معانيه :

« اللهم إني أعوذ بك أن تُحسِّن في لوامع العيون علانيتي ، وتُقبح في خفيات الأمور سريرتي . اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إليَّ ، فإذا عدت فعد إليَّ ، اللهم ارزقني مواساة من قتّرت عليه رزقك بما وسعت عليّ من فضلك » .

الحسن البصري

ذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » أن اسم والد الحسن « يسار » و« أبرد » و« أمه خيرة مولاة لأم سلمة رضي الله عنها كانت تخدمها ، وربما أرسلتها في الحاجة فتشتغل عن ولدها الحسن وهو رضيع ، فتشاغله أم سلمة رضي الله عنها بثدييها فيدران عليه فيرتضع منهما ، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التي أوتيها الحسن من بركة تلك الرضاعة » ، وذكر ابن كثير أن أم الحسن كانت تخرجه إلى الصحابة ﷺ فيدعون له « وكان في جملة من يدعو له عمر بن الخطاب ﷺ ، قال : اللهم فقهه في الدين ، وحبِّبه إلى الناس » .

واستجاب الله عزَّ وجلَّ دعاء الصحابة ، فكان إمام التابعين آية في العلم والعمل ، قريباً من القلوب ، وقد أثنى عليه العلماء الأجلاء :

- **سئل مرة أنس بن مالك عن مسألة ، فقال : « سلوا عنها مولانا الحسن ، فإنه سمع وسمعنا ، فحفظ ونسينا » .**

- **وقال قتادة : « ما رأت عيناي أفقه من الحسن . وقال أيضاً : ما جالست رجلاً فقيهاً إلا رأيت فضل الحسن عليه » .**

- **وقال محمد بن سعد : « كان الحسن جامعاً للعلم والعمل ؛ عالماً رفيعاً ، فقيهاً ، ثقة ، مأموناً ، عابداً ، زاهداً ، ناسكاً .. فصيحاً ، جميلاً ، وسيما » .**

❁ ❁ ❁

كان التابعي الجليل الحسن البصري رحمه الله تعالى في طليعة العلماء العاملين الذين رصدوا بوادر الانحراف التي تسللت إلى الخاصّة والعامّة .. فوقع بصره على أمراض فتكت بعلماء !! .. وكان يدرك من تعاليم الوحي أثر العالم الرباني الطيب .. والأثر المفسد لعلماء الدنيا (**قال مالك بن دينار : قلت للحسن البصري : ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا ؟ ، قال : موت القلب ، فإذا أحبّ الدنيا طلبها بعمل الآخرة ، فعند ذلك**

ترحل عنه بركات العلم ويبقى رسمه) .

❁ ❁ ❁

وكان الحسن رحمه الله يدعو معاصريه إلى الزهد في الدنيا .. ويضرب لهم المثل من الرعيل الأول رضوان الله عليهم .. فيقول :

(أدركت صدر هذه الأمة وخيارها ، وطال عمري فيهم ، فوالله إنهم كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم! ، أدركتهم عاملين بكتاب ربهم ، متبعين سنة نبيهم . ما طوى أحدهم ثوباً ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً ، ولا أمر أهله بصنع طعام ، كان أحدهم يدخل منـــزله فإن قُرِّب إليه شيء أكل ، وإلا سكت فلا يتكلم في ذلك) .

ولم يكن الحسن مضطرب النظر إلى التعامل مع الدنيا .. فهو لم يدع إلى تركها ، وإنما أراد بالزهد فيها ما عبر عنه بقوله :

(من جعل الحمد لله على النِّعم حصناً وحابساً ، وجعل أداء الزكاة على المال سياجاً وحارساً ، وجعل العلم له دليلاً وسائساً .. أَمِنَ العطب ، وبلغ أعلى الرتب .

ومن كان للمال قابضاً ، وله عن الحقوق حابساً .. وشغله وألهاه عن طاعة الله .. كان لنفسه ظالماً ، ولقلبه بما جنت يداه كالِماً ، وسلّط الله على ماله سالباً وخالساً ، ولم يأمن العطب في سائر وجوه الطلب).

ومن لطائف نظرة الحسن البصري رحمه الله إلى التعامل مع الدنيا ما ذكره تلميذه فرقد (قال فرقد : دخلنا على الحسن البصري فقلنا : يا أبا سعيد ، ألا يعجبك من محمد بن الأهتم ؟! . فقال : ماله ؟! . فقلنا : دخلنا عليه آنفاً وهو يجود بنفسه ، فقال : انظروا إلى ذاك الصندوق – وأومأ إلى صندوق في جانب بيته – فقال : هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار – أو قال : درهم – ، لم أؤد منها زكاة ، ولم أصل منها رحماً ، ولم يأكل منها محتاج . فقلنا : يا أبا عبد الله ، فلمن كنت تجمعها ؟! . قال : لروعة الزمان ، ومكاثرة الأقران، وجفوة السلطان .

فقال الحسن : انظروا من أين أتاه شيطانه ؟ فخوَّفه روعة زمانه ، ومكاثرة أقرانه ، وجفوة سلطانه !!. ثم قال : أيها الوارث لا تُخدعنَّ كما خُدع صُوَيْحِبُكَ بالأمس ، جاءك هذا المال لم تتعب لك فيه يمين ، ولم يعرق لك فيه جبين ، جاءك ممن كان له جموعاً منوعاً ؛ من باطل جمعه ، من حقٍّ منعه . ثم قال : إن يوم القيامة لذو حسرات ، الرجل يجمع المال ثم يموت ويدعه لغيره فيرزقه الله فيه الصلاح والإنفاق في وجوه البرّ .. فيجد ماله في ميزان غيره !!) .

وشـــهد إمام التابعين بروز فكرة (**الإرجاء**) التي أدت إلى الفصل بين الإيمان والعمل .. فشدد رحمه الله النكير على الذين قالوا : آمنا .. ولم يصدق فعلُهم قولَهم .. وإنكاره يدل على علم وفقـــه دقـــيقين .. روى الطبراني عن الحسن أنه قال :

(**إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة ، ورجاء الرحمة ، حتى خرجوا من الدنيا وليس لهم أعمال صالحة ، يقول أحدهم : إني لحسن الظن بالله ، وأرجو رحمة الله . وكذب ، لو أحسن الظنَّ بالله لأحسن العمل لله ، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة !! . يوشك من دخل المفازة من غير زاد ولا ماء أن يهلك !!**) .

وراع أبا سعيد عليه رحمة الله ما شاهده من بدايات انفصال العمل عن القول لدى فريق من أهل التحصيل العلمي .. فنادى في الناس يعلمهم الميزان الذي يقوِّمون به الرجال .. فقال : (**اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم ، فإن الله عزَّ وجلَّ لم يدع قولاً إلا**

جعل عليه دليلاً يصدِّقه أو يكذِّبه ؛ فإن سمعت قولاً حسناً فرويداً بصاحبه ، فإن وافق قول عملاً فنعم ونعمت عين أخته وأخيه ، وإذا خالف قول عملاً فماذا عليك منه ؟!! ، أم ماذا يخفى عليك منه ؟ إيّاك وإيّاه لا يخدعنك كما خدع ابن آدم .

إن لك قولاً وعملا .. فعملك أحق بك من قولك ، وإن لك سريرة وعلانية .. فسريرتك أحق منك من علانيتك ، وإن لك عاجلة وعاقبة .. فعاقبتك أحق بك من عاجلتك) .

❁ ❁ ❁

ورحم الله الحسن .. فقد كان كثير التنبيه إلى (**علم القلب وعمل القلب**) بالإضافة إلى (**علم الظاهر وعمل الجوارح**) .. ونختار من توجيهاته روائع تضع أيدينا على كثير من العلل التي تفتك بكثيرين من أبناء جيلنا :

١- روى العتبي أن الحسن كتب إلى فرقد يقول : (**أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله ، والعمل بما علَّمك الله ، والاستعداد لما وعد الله ، مما لا حيلة لأحد في دفعه ، ولا ينفع الندم عند نزوله ، فاحسر عن رأسك قناع الغافلين ، وانتبه من رقدة الجاهلين ، وشِّمر الساق ، فإن الدنيا ميدان مسابقة ، والغاية : الجنة أو النار ، فإن لي ولك من الله مقاماً يسألني وإيّاك عن الحقير والدقيق والخافي ، ولا آمن أن يكون فيما يسألني وإيّاك عنه : وساوس الصدور ، ولحظ العيون ، وإصغاء الأسماع ، وما أعجز عنه**) .

٢- وروى ابن أبي الدنيا عن حمزة الأعمى قال : ذهبـــتْ بي أمي إلى الحسن البصري ، فقالت : يا أبا سعيد .. ابني هذا قد أحببت أن يلزمك ، فلعل الله أن ينفعه بك . قال : فكنت أختلف إليه ، فقال لي يوما :

(يا بُنيَّ أَدِمِ الحزنَ على خير الآخرة لعله تعالى أن يوصلك إليه ، وابك في ساعات الليل والنهار في الخلوة لعل مولاك أن يطَّلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين) . قال حمزة : وكنت أدخل على الحسن منـــزله وهو يبكي ، وربما جئت إليه وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه ، فقلت له يوماً : إنك تكثر البكاء !! ، فقال : **(يا بُنيَّ ، ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبك ؟! ، يا بُنيّ .. إن البكاء داع إلى الرحمة ، فإن استطعت أن تكون عمرك باكياً فافعل .. لعله تعالى أن يرحمك)** .

٣- وروى ابن أبي الدنيا أن الحسن البصري قال :

(المؤمن قوَّام على نفسه .. يحاسب نفسه لله عزَّ وجلَّ ، وإنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على أقوام أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .

إن المؤمن يفجأه الشيء ويعجبه ، فيقول : والله إنك لمن حاجتي ، وإني أشتهيك ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات .. حيل بيني وبينك .. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه ، فيقول : ما أردت إلى هذا الأمر أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عزَّ وجلَّ ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه ، وفي جوارحه كلها) .

❁ ❁ ❁

ومن جميل تدبر أبي سعيد رحمه الله للقرآن ما كان يردده عند قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ [القيامة : ٢] قال : **(لا تلقى المؤمن إلا يلوم نفسه : ما أردتِ بكلمة كذا ؟ ، ما أردتِ بأكلةِ كذا ؟ ، ما أردتِ بمجلس كذا ؟ . أما الفاجر فيمضي قدماً قدماً لا يلوم نفسه)** .

ومن هنا كان رحمه الله شديد الخوف من **(النفاق)** . **سئل يوماً : ما النفاق ؟** . قال : **(هو اختلاف السرِّ والعلانية ، والمدخل والمخرج)** ، وقال : **(ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق)** ، **وحلف الحسن : (ما مضى مؤمن ولا بقي إلا وهو يخاف النفاق ، ولا مضى منافق ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن)** .

ولذلك كان يحذر كثيراً من الرياء .. روى ابن أبي الدنيا أن الحسن قال : **(كان الرجل يتعبد عشرين سنة لا يشعر به جاره ، وأحدكم يصلي ليلة أو بعض ليلة ، فيصبح وقد استطال على جاره !! . وإن كان القوم ليجتمعون فيتذاكرون ، فتجيء الرجلَ عَبْرتُه فيردها ما استطاع ، فإن غُلب قام عنهم !!)** .

ويسجل تاريخ الحسن اهتمامه الكبير بأمر المجتمع .. ما ينفعه وما يفسده .. وذلك على الرغم من دعوته إلى الزهد والبعد عن كل ما هو مظنة أن يفسد القلب .. فمن كلامه الحسن قوله :

(**أربعٌ من كن فيه ألقى الله عليه محبته ، ونشر عليه رحمته : من رقَّ لوالديه ، ورقَّ لمملوكه ، وكفل اليتيم ، وأعان الضعيف**) . ومن فقه الحسن في مقاومة فساد المفسدين في الأرض فتواه في (الغيبة) .. فهو يقرر المعنى الشرعي للغيبة وينفر منها ، روى ابن أبي الدنيا قول الحسن في التنفير من هذا الداء الفتّاك : (**والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة في جسده**) .. ولكنه يبين أيضاً ضرورة التعرض لأحوال الظالمين والمفسدين بفسق أو بدعة بالبيان تحذيراً للناس من شرورهم . **قال أصلتُ بن طريف : قلت للحسن : الرجل الفاجر المعلن بفجوره ، ذكري له بما فيه غيبة ؟ . قال : (لا ، ولا كرامة) وقال : (إذا ظهر فجوره فلا غيبة له**) ومن أقواله الرائعة في هذا المعنى قوله : (**ثلاثة لا تحرم عليك غيبتهم : المجاهر بالفسق ، والإمام الجائر ، والمبتدع**) .

وكان رحمه الله مدركاً أن السلامة من الناس غاية لا تدرك .. ولكن لا بد من مخالطتهم .. وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .. **جاءه رجل يوماً فقال : إن قوماً يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الوقيعة فيك سبيلاً . فقال : (هوِّن عليك يا هذا ، فإني أطمعت نفسي في الجنان فطمعت ، وأطمعتها في النجاة من النار فطمعت ، وأطمعتها في السلامة من الناس فلم أجد لذلك سبيلا**) .

❁ ❁ ❁

وقد عبّر رحمه الله عن ضرورة تمسك المسلم بالموقف الإيجابي الفعّال البعيد عن الهوى والانفعال الطائش وهو يتعامل مع الحياة والأحياء ... فيقول في كلمات تكتب بماء الذهب :

(**من علامات المسلم : قوةٌ في دين ، وحزمٌ في لين ، وإيمانٌ في يقين ، وحكمٌ في علم ، وحبسٌ في حق، وإعطاء في حق ، وقصدٌ في غنى ، وتحمُّلٌ في فاقة ، وإحسانٌ في قدرة ، وطاعةٌ معها نصيحة ، وتورعٌ في رغبة ، وتعفف وصبر في شدة ؛ لا ترديه رغبة ، ولا يبدره لسانه ، ولا يسبقه بصره ، ولا يغلبه فرجه ، ولا يميل به هواه ، ولا يفضحه لسانه ، ولا يستخفُّه حرصه ، ولا تقصر به نيّة**) .

❁ ❁ ❁

ونختم نقولنا عن الحسن يرحمه الله بطائفة من نصائحه الثمينة .. وما أحوج أمثالنا في هذا الزمان إليها :

❁ **يا ابنَ آدم .. إن من ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يدي الله عزَّ وجلّ .**

❁ **ابنَ آدم .. إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تصيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ**

بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك .. وأحبّ العباد إلى الله من كان هكذا .

۞ لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همته .

۞ **المؤمن في الدنيا كالغريب ، لا ينافس في غِيَرها ، ولا يجزع من ذلها ، للناس حال وله حال ، الناس منه في راحة ، ونفسه منه في شغل .**

۞ **ابنَ آدم .. إنك ناظر غداً إلى عملك يوزن خيرُه وشره ، فلا تحقرن شيئاً من الشر تتقيه .**

۞ **ابنَ آدم .. بعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تَبِعْ آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً .**

۞ كان الحسن يتمثل بهذا البيت في أول النهار ، فيقول :

وما الدنيـــا بباقيـــة لحيٍّ ولا حيّ على الدنيا بباقِ

وبهذا البيت في آخر النهار :

يسر الفتى ما كان قدم من تُقىً إذا عرف الداء الذي هو قاتلُه

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

محمد بن مسلم

« الزهري »

شهد الإمام ابن كثير في « البداية والنهاية » أن التابعي الجليل محمد بن مسلم المشهور بـ « الزهري » نسبة إلى جده الأعلى ، أو بـ « ابن شهاب » نسبة إلى أحد أجداده ، كان « أحد الأعلام من أئمة الإسلام » ، وأنه نال هذه المكانة السامقة بسعيه المتواصل وصبره الجميل على طلب العلم النافع من منابعه الصافية.

ومن سعيه المبارك في تحصيل العلم ما ذكره ابن كثير في ترجمة الزهري ، قال : « جالس سعيدَ بنَ المسيب ثمانِ سنين ، تمسُّ ركبتُه ركبتَه ، وكان يخدم عبيد الله بن عبد الله يستسقي له الماء ، ويدور على مشـــايخ الحديث ، ومعه ألواح يكتب عنهم فيها الحديث ، ويكتب عنهم كل ما سمع منهم ، حتى صار من أعلم الناس في زمانه ، وقد احتاج أهل عصره إليه » .

❁ ❁ ❁

وقد ساعد الإمامَ الزهريَ رحمه الله تعالى على تكوين ثروة علمية نادرة المثال ، ما رزقه الله من قلب حافظ ، وذهن متقد ، ولسان فصيح . وقد شهد ابن شهاب نفسُه على قوة حفظه فقال : « **ما استودعت قلبي شيئاً قطّ فنسيته** » وكان يعرب عن اهتمامه بتقويم اللسان وفصاحته ، ومن ذلك قوله : « **ما أحدث الناس مروءة أعجب إليّ من الفصاحة** » ، قال أحمد بن صالح : « كان يقال : فصحاء زمانهم الزهري ، وعمر بن عبد العزيز ، وموسى بن طلحة ، وعبيد الله » ، وذكر سعيد بن عبد العزيز قصة امتحان هشام بن عبد الملك « ذاكرةَ الزهري » . تقول القصة : « **إن هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يكتب لبنيه شيئاً من حديثه ، فأملى على كاتبه أربعمائة حديث ، ثم خرج على أهل الحديث فحدثهم بها . ثم إن هشاماً قال للزهري : إن ذلك الكتاب ضاع . فقال : لا عليك ، فأملى عليهم تلك الأحاديث . فأخرج هشام الكتاب الأول ، فإذا هو لم يغادر حرفاً واحداً ، وإنما أراد هشام امتحان حفظه** » .

❁ ❁ ❁

ولا يخفى على من طرق أبواب العلم أن مواهب المرء لا تكفي لتحصيل العلم وحفظه ، إذ لا بدّ أن يتخذ صاحب الموهبة وسائل تمكنه من تثبيت المعلومات واستحضارها باستمرار ، ومن جملة الوسائل النافعة ما ذكره القائل :

من حاز العلم وذاكَره صلحت دنياهُ وآخرتُه
فأدمْ للعلـــم مذاكـــرةً فحيـــاةُ العلم مذاكرتُـــه

وقد كان الزهري رحمه الله يتوسل إلى المحافظة على العلم بأمور ، نذكر منها :

١- قال أبو اسحاق : « **كان الزهري يرجع من عند عروة** -بن الزبير- **فيقول لجارية عنده فيها لكنة** -لا تجيد العربية- **حدثنا عروة حدثنا فلان ، ويسرد عليها ما سمعه منه . فتقول له الجارية : واللهِ ما أدري ما تقول !! ، فيقول لها : اسكتي .. فإني لا أريدك ، إنما أريد نفسي** » .

٢- وقال صالح بن كيسان : « **اجتمعت أنا والزهري ، ونحن نطلب العلم ، فقلنا : نحن نكتب السنن. فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ ، ثم قال لي : هلم فلنكتب ما جاء عن أصحابه فإنه سنة .**

فقلت : إنه ليس بسنة فلا نكتب . قال فكتب ما جاء عنهم و لم أكتب . فأنجح - بمعنى : جمع وتعلّم - وضيَّعتُ » .

٣- وقال رشيد بن سعيد : « **كان ابن شهاب يترل بالأعراب يعلمهم لئلا ينسى العلم** » . لذلك لا عجب أن يردد الزهري رحمه الله : « **إنما يُذهبُ العلمَ النسيانُ وتركُ المذاكرة** » .

❁ ❁ ❁

والعالم الكامل هو الذي يطرق جميع أبواب المعرفة المتداولة في عصره ... ليستعين بذلك على فهم أفضل لواقع الناس ، وعلى تعامل واعٍ مع قواه الفاعلة .. وما أروعها شهادة يدلي بها الإمام الليث بن سعد وهو يقول : « **ما رأيت عالماً قطّ أجمع** -أكثر علماً- **من ابن شهاب! ، ولو سمعته يحدِّث في الترغيب والترهيب ، لقلت : ما يحسن غير هذا ، وإن حدَّث عن الأنبياء وأهل الكتاب ، قلت : لا يُحسن إلا هذا ، وإن حدَّث عن الأعراب والأنساب ، قلت : لا يحسن إلا هذا ، وإن حدَّث عن القرآن والسنة كان حديثه بدعاً جامعا** » .

وهذه المعرفة الجامعة هي التي أهّلت الإمام الزهري للفتوى والقضاء ، وجعلت أهل الفضل والسابقة يثنون عليه رحمه الله تعالى .

يقول عمر بن عبد العزيز : « **عليكم بابن شهاب فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه** » ، و « **سئل مكحول : مَنْ أعلم مَنْ لقيت ؟ ، قال : الزهري ، قيل : ثم من ؟ ، قال : الزهري ، قيل : ثم من ؟ ، قال : الزهري** » ، ويقول علي بن المديني : « **الذين أفتوا أربعة : الزهري ، والحكم ، وحماد ، وقتادة ، والزهري أفقههم عندي** » . بل إن عمرو بن دينار يشهد بتفوّق موهبة الإمام الزهري العلمية البيانية على بعض كبار الصحابة فيقول : « **ولقد جالست جابراً وابن عباس وابن عمر وابن الزبير ، فما رأيت أحداً أسيق للحديث من الزهري** » .

والعلم النافع يثمر في القلب حكمة وفي السلوك استقامة ، وليس هناك أسوأ من افتراق العمل عن العلم ، وما أجملها موعظة نطق بها الإمام الزهري وهو يحذّر من « **غوائل العلم** » وهي الدواهي التي تُذهب بهاء العلم. قال رحمه الله : « **إن من غوائله قلة انتفاع العالم بعلمه ، ومن غوائله : النسيان ، والكذب ، وهو أشدّ الغوائل** » . لذلك كان يحذر القضاة من أمراضٍ إذا أصابت قلباً أهلكت صاحبه ، وتحذيره دليل على « فقه المعاناة » الصادرة عن رجل عاش تجربة القضاء ، قال رحمه الله : « **ثلاثة إذا كنّ في القاضي فليس بقاض : إذا كره الملاوم ، وأحبّ المحامد ، وكره العزل** » .

ولا ريب في أن أخذ العلم عن العلماء الربانيين له فائدتان : تحصيل معلومات واقتداء بعمل ، وقد اتفقت كلمة أهل التربية على أن « المجالسة » تُفضي إلى « المجانسة » . وقديماً قيل : « مَنْ جالس جانس » ، وهذه الحقيقة جعلت الزهري يقول : « **كنا نأتي العالم ، فما نتعلم من أدبه أحبّ إلينا من علمه** » ، ويقول رحمه الله : « **لا يوثّق الناس علمَ عالم لا يعمل به ، ولا يُؤْمَنُ بقول عالم لا يُرضى** » ، وكان الزهري يتجنب أن يصف أحداً بـ « عالم » ، قال سفيان : « **كان الزهري يقول : حدثني فلان ، وكان من أوعية العلم ، ولا يقول : كان عالما** » .

❁ ❁ ❁

وخصال أهل العلم في الأعصر الإسلامية الأولى كانت كثيرة محمودة ، نذكر منها خصلتين كان الإمـــام ابن شهاب رحمه الله يتصف بهما :

الخصلة الأولى :

الزهد ، وعلامته أن لا تُحجب الدنيا ، بعد الحصول عليها ، عن البذل في طرق الخير ، وأن لا تسترق مالكها ، حدَّث سفيان ابن عيينة عن عمرو بن دينار فقال : « ما رأيت أحداً أنصّ للحديث من الزهري – يعني بذلك كثرة علمه ودقة حفظه – ولا أهون من الدينار والدرهم عنده ، وما الدرهم والدينار عند الزهري إلا بمنـــزلة البعر » . وقد عرف ابن شهاب رحمه الله تعالى « الزاهد » بعبارة جامعة ، قال سفيان : « **سئل الزهري عن الزاهد ؟ فقال : من لم يمنع الحلالُ شكره ، ولم يغلب الحرامُ صبرَه** » .

الخصلة الثانية :

السخاء ، وحقيقته : بذل الخير عن رغبة متأصلة في النفس : وقد سجل الإمام الليث بن سعد رحمه الله شهادة رائعة في الإمام الزهري فقال : « **كان الزهري أسخى من رأيت ، يعطي كل من جاء وسأله : حتى إذا لم يبق عنده شيء استسلف** » ، وقد يرى بعض الناس في السخاء .. أن لا يتجاوز ما يملكه الإنسان أو يستطيع الوفاء به .. وهذا ما تذكره هذه القصة الطريفة ، « قال الشافعي : عتب رجاء بن حيوة على الزهري

في الإسراف ، وكان

يستدين ، فقال له : لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم – الحكام – ما بأيديهم عنك ، فتكون قد حُملت على أمانيك !! قال فوعده الزهري أن يقصر ، فمرّ به بعد ذلك ، وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل – للضيافة كعادته التي جرى عليها – فوقف به رجاء وقال : يا أبا بكر! ما هذا بالذي فارقتنا عليه . فقال له الزهري : **انزل فإن السخي لا تعلمه التجارب** » . قال ابن كثير في البداية « البداية والنهاية » بعد ذكر القصة السابقة : وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى :

له سحائب جود في أنامله أمطارها الفضةُ البيضاء والذهبُ
يقول في العسر : إن أيسرت ثانيةً أقصرتُ عن بعض ما أُعطى وما أَهبُ
حتى إذا عاد أيام اليسار له رأيتَ أموالَه في الناس تُنْتَهَبُ

❁ ❁ ❁

ونختم الكلام عن عالم العلماء أبي بكر محمد بن مسلم بذكر طائفة من كلامه الجميل ، عسى أن يكون لنا فيه عبرة :

❁ **إذا طال المجلس كان للشيطان فيه حظّ ونصيب .**

❁ **إن هذا العلم إن أخذته بالمكابرة غلبك ولم تظفر منه بشيء . ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذاً رفيقاً تظفر به .**

❁ عن يونس قال : قال الزهري : **إيّاك وغلول الكتب! . قلتُ وما غلولها ؟ قال : حبسها عن أهلها.**

❁ امتدح رجل مرة الزهري فأعطاه قميصه ، فقيل له : أتعطي على كلام الشيطان ؟!! فقال : **إن من ابتغاء الخير اتقاء الشرّ .**

❁ **العبادة هي الورع والزهد ، والعلم هو الحسنة ، والصبر هو احتمال المكاره والدعوة إلى الله على العمل الصالح .**

❁ **إن هذا العلم ، الذي أدّب الله به رسول الله ﷺ ، وأدّب رسولُ الله ﷺ به أمته ، أمانةُ الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدى إليه ، فمن سمع علماً فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عزَّ وجلَّ .**

۞ روى الأوزاعي عن الزهري أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن** » . فقلت للزهري : ما هذا ؟! فقال : **مِنَ الله العلمُ ، وعلى رسوله البلاغُ ، وعلينا التسليمُ ، أمِرُّوا أحاديثَ رسول الله ﷺ كما جاءت** .

۞ **استكثروا من شيء لا تمسه النار . قيل : وما هو ؟ قال : المعروف** .

۞ وكان الزهري يتمثل كثيراً بهذين البيتين :

ذهب الشباب فلا يعود جُمانا وكأنَّ ما قد كان لم يك كانا
فطويت كفى يا جمان على العصا وكفى جمانُ بطيّها حدثانا

(الجمان : اللؤلؤ . الحدثان : الليل والنهار ، وحدثان الدهر : نوائبه) .

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

محمد بن عليّ

احتفظت ذاكرة جيل التابعين بمكانة سامقة لسليل بيت النبوة محمد بن علي بن الحسين ﷺ أجمعين . ترجم له ابن كثير في « البداية والنهاية » فقال : « هو تابعي جليل ، كبير القدر كثيراً ، أحد أعلام هذه الأمة علماً وعملاً وسيادة وشرفا » وقال في وصف حاله : « كان ذاكراً خاشعاً صابرا .. وكان عارفاً بالخطرات ، كثير البكاء والعبرات ، معرضاً عن الجدال والخصومات » . ويكنى الإمام محمد بأبي جعفر ، ويلقب بـ « الباقر » قال ابن كثير : « وسمي الباقر لبقره العلوم واستنباطه الحكم » .

❁ ❁ ❁

وعظ محمد بن علي رحمه الله تعالى جابراً الجعفي موعظة بليغة جامعة ، ينبغي أن يتأملها كل داعية بعمق كبير ، وأن يفتش في قلبه عن المعاني الرديئة ليتوب إلى الله عزَّ وجلَّ منها .. أما إذا وجد

القلب ملآناً بالمعاني الطيبة الكريمة التي اقتبسها الإمام محمد من مشكاة النبوة داعياً إلى التمسك بها .. فعليه أن يحمد الله تعالى ، وأن يحرص على بقائها وعدم زوالها ..

« قال جابر الجعفي : **قال لي محمد بن علي : يا جابر! إني لمحزون ، وإني لمشتغل القلب** » .

قلت : وما حزنك وشغل قلبك ؟!

قال : يا جابر! إنه من دخل قلبه صافي دين الله عزَّ وجلَّ شغله عما سواه . يا جابر .. ما الدنيا ؟! ، وما عسى أن تكون ؟! هل هي إلا مركباً ركبته ؟ أو ثوباً لبسته ؟ أو إمرأة أصبتها ؟! يا جابر! إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها ، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة ، ففازوا بثواب الأبرار .

إن أهل التقوى أيسرُ أهل الدنيا مؤنة ، وأكثرُهم لك معونة ، إن نسيت ذكَّروك ، وإن ذكرتَ أعانوك ، قوّالين بحق الله ، قوّامين بأمر الله .. نظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم ، وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم ، فأنزلوا الدنيا حيث أنزلها مليكهم ، كمنـــزل نزلوه ثم ارتحلوا عنه وتركوه ، وكماء أصبته في منامك فلما استيقظت إذ ليس في يدك منه شيء . فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته » .

لذلك كان محمد بن علي رحمه الله يحب الزاهدين ، ويدعو إلى إكرامهم وتعظيمهم في القلوب .. فمن كلامه الحسن : « **كان لي أخ في عيني عظيم ، وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه** » . أما الذين استولت الدنيا على قلوبهم .. وخاصة العلماء .. فإنه كان يروي في التنفير منهم كلاماً قاله الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ ، قال خالد بن يزيد : سمعت محمد بن علي يقول : قال عمر بن الخطاب : « **إذا رأيتم القارىء يحب الأغنياء فهو صاحب دنيا ، وإذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص** » .

❁ ❁ ❁

ولمس أبو جعفر رحمه الله من واقع الأمة أن حب الدنيا رأس كل خطيئة .. لأن الإقبال على الدنيا يورث غفلة في القلب ، وهضماً لحقوق الآخرين ، وإهمالاً لمواساة الأقارب والإخوان ، وفي بيان ذلك يقول : « **أشد الأعمال ثلاثة : ذكر الله على كل حال ، وإنصافك من نفسك ، ومواساة الأخ في المال** » .

ودعوة التابعي الجليل محمد إلى الزهد ، وتحذيره من تمكن حب الدنيا من القلوب ، دليلٌ على اهتمامه الكبير بالجانب الأخلاقي من حياة الإنسان .. وهو جانب جدير بأن يوجه إليه الدعاة في زماننا عناية فائقة لإحيائه وإشاعة بركته بين الناس .. حتى تستقيم سجاياهم وتصلح أعمالهم .. فمن نصائحه رحمه الله في باب أخلاق المتقين قوله :

« **ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج ، وما من شيء أحب إلى الله عزَّ وجلَّ من أن يسأل ، وما يدفع القضاء إلا الدعاء . وإن أسرع الخير ثواباً البر ، وأسرع الشر عقوبة البغي ، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله ، وينهى الناس بما لا يستطيع أن يتحول عنه ، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه** » .

❁ ❁ ❁

وينقل الباقر محمد بن علي من علمه وتجربته درساً في الإيمان وقوته وضعفه ، محذراً ومنفراً من خلق ذميم يمقته الله تعالى وهو « **الكبر** » الذي يدفع صاحبه إلى « بطر الحق وغمط الناس » يقول رحمه الله : « **الإيمان ثابت في القلب ، واليقين خطرات ، فيمر اليقين بالقلب فيصير كأنه زبر الحديد ، ويخرج منه فيصير كأنه خرقة بالية ، وما دخل قلب عبد شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أكثر منه** » .

❁ ❁ ❁

وكان أبو جعفر رحمه الله دائم الدعوة إلى الخلال الكريمة ... وكان يؤكد على خلق « **الرفق** » وهو خلق رغّب فيه الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة ، يقول محمد بن علي : « **من أُعطي الخلق والرفق فقد أُعطي الخير والراحة ، وحَسُنَ حاله في دنياه وآخرته ، ومن حُرمهما كان ذلك سبيلاً إلى كل شر وبلية ، إلا من عصمه الله** » .

أما تنفيره من الأخلاق الخبيثة وآثارها في السلوك ، وعلى العلاقات بين الناس ، فنجده كثيراً في كلامه ، ومن ذلك قوله في نصيحة لابنه : « **إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل خبيثة ، إنك إن كسلت لم تؤد حقاً ، وإذا ضجرت لم تصبر على حق** » وقوله : « **إياكم والخصومة فإنها تفسد القلب وتورث النفاق** » وقوله : « **سلاح اللئام قبيح الكلام** » .

وهذا الحصن الأخلاقي المتين هو الذي اعتصم به محمد بن علي يوم برزت فتنة « التشيع » ، فالتزم رحمه الله مذهب أهل السنة والجماعة . وإلى هذا أشار ابن كثير في ترجمته : « **وهو أحد من تدّعي فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الإثني عشر ، ولم يكن الرجل على طريقتهم ولا على منوالهم ، ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم وخيالهم ، بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر ، وذلك عنده صحيح في الأثر ، وقال أيضاً : ما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما رضي الله عنهما** » ، ومن أدلة ذلك ما رواه عروة وجابر : « **قال عروة بن عبد الله : سألت أبا جعفر بن علي عن حِلية السيف ؟**

فقال : لا بأس به ، قد حلى أبو بكر الصديق سيفه . قال : قلت : وتقول الصديق ؟! . فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال :

نعم الصديق ، نعم الصديق ، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولاً في الدنيا والآخرة » .

« وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي : يا جابر! بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا ، ويتناولون أبا بكر وعمر ، ويزعمون أني أمرتهم بذلك ، فأبلغهم عني أني إلى الله منهم بريء ، والذي نفسي بيده لو وُليت لتقربت إلى الله بدمائهم ، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن لم أستغفر لهما ، وأترحم عليهما ، إن أعداء الله غافلون عن فضلهما وسابقتهما ، فأبلغهم أني بريء منهم وممن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . وقال : من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة » .

وهذا الموقف النبيل العظيم من أبي جعفر رحمه الله تعالى يلقي في روعنا درساً في أصول التعامل مع « **الفتن** » ، **ففي زمن الفتنة والخصومة .. تختل قيم .. وتضطرب موازين .. وتمتحن الأخلاق .. فمن اعتصم ؛ قلباً ، وسمعاً ، ولساناً بحدود الشرع فقد فاز .. ومن ترك قلبه .. تعبث به الظنون والأوهام ، وسمعه .. يستقبل ما هبّ ودبّ من كلام المفتونين ، ولسانه .. ينطلق على غير هدى في أعراض الناس .. ولو كان متأولاً .. فقد هلك . نعوذ بالله من الخذلان .**

❁ ❁ ❁

ونختم الكلام عن الباقر أبي جعفر رحمة الله عليه بذكر طائفة من نصائحه التي نحتاجها .. يقول رحمه الله :

۞ **اعرف مودة أخيك لك بما له في قلبك من المودة ، فإن القلوب تتكافأ .**

۞ **الغنى والعزّ يجولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل أوطِناه .**

۞ **بئس الأخ أخٌ يرعاك غنياً ويقطعك فقيرا .**

۞ **والله لموت عالم أحبّ إلى إبليس من موت ألف عابد .**

۞ **تدعو الله بما تحب ، وإذا وقع الذي تكره لم تخالف الله عزَّ وجلَّ فيما أحب .**

۞ **لكل شيء آفة ، وآفة العلم النسيان .**

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

ميمون بن مهران

تحدث صاحب « البداية والنهاية » الإمام ابن كثير عن ميمون ابن مهران فقال : « هو من أجلاء علماء التابعين وزهَّادهم وعبّادهم وأئمتهم » ، وهذا ليس غريباً على رجل صدق العهد مع الله عزَّ وجلَّ ، وأفنى حياته في طلب العلم النافع ، وتحمّل المشقة من أجل تحصيله ، وما ألطف قوله وهو يتحدث عن حبه للعلم والعلماء : « العلماء هم ضالتي في كل بلدة ، وهم أحبتي في كل مصر ، ووجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء » .

❁ ❁ ❁

كان رحمه الله تعالى يدرك بثاقب بصره أن على طالب العلم أن يفرّ من خُلق « **المماراة** » فراره من الأسد ، وفي ذلك يقول محذراً : « **لا تمارينَّ عالماً ولا جاهلاً ؛ فإنك إن ماريت عالماً خَزَنَ عنك علمه ، وإن ماريت جاهلاً خَشُنَ في صدرك** » .

ولقد كثر تنبيه ابن مهران إلى أن القرآن هو مصدر العلوم التي يُعرف بها الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، والحلال من الحرام .. وأن الاشتغال بسواه وهجره أصل كل بلاء ، ويبين رحمه الله للأجيال أن الذي يشتغل بعلم الوحي واحد من ثلاثة : رجل يطلب به الدنيا ، ورجل يماري به ، ورجل ليعمل بما فيه .. يقول ميمون : « **إن هذا القرآن قد خَلَقَ في صدور كثير من الناس فالتمسوا ما سواه من الأحاديث ، وإن فيمن يتبع هذا العلم قوماً يتخذونه بضاعة يلتمس بها الدنيا ، ومنهم من يريد أن يماري به ، وخيرهم من يتعلمه ويطيع الله عزَّ وجلَّ به** » .

والقرآن حجة للمرء أو حجة عليه ، يقول ابن مهران : « **من اتبع القرآن ، قاده القرآن حتى يحل به الجنة ، ومن ترك القرآن ، لم يدعه القرآن ، يتبعه حتى يقذفه في النار** » .

❁ ❁ ❁

أما صلة ميمون رحمه الله تعالى بكتاب الله عزَّ وجلَّ وتأثره به ... فيحدثنا عنها ابنه عمر ، قال : « خرجت بأبي أقوده في بعض سكك المدينة ، فمررنا بجدول فلم يستطع الشيخ أن يتخطاه ، فاضطجعت له فمرّ على ظهري ، ثم قمت فأخذت بيده ، ثم دفعنا إلى منـــزل الحسن – البصري – فطرقت الباب ، فخرجت إلينا جارية ، فقالت : من هذا ؟ فقلت : هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن ، فقالت : كاتب عمر بن العزيز؟! ، قلت لها : نعم ، قالت : يا شقي ما بقاؤك إلى هذا الزمن السوء ؟! . قال : فبكى الشيخ ، فسمع

الحسن بكاءه فخرج إليه ، فاعتنقا ثم دخلا ، فقال ميمون : يا أبا سعيد! إني آنست من قلبي غلظة فاستكن لي منه ، فقرأ الحسن : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۞ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ** ﴾ [الشعراء : ٢٠٥-٢٠٧] ، فسقط الشيخ مغشياً عليه ، فرأيته يفحص برجليه كما تفحص الشاة إذا ذبحت .

فأقام طويلاً ، ثم جاءت الجارية فقالت : قد أتعبتم الشيخ ، قوموا تفرقوا ، فأخذت بيد أبي فخرجت ، فقلت : يا أبتِ أهذا هو الحسن ؟! . قال : نعم ، قلت : قد كنت أحسب في نفسي أنه أكبر من هذا (!!) . قال : فوكز في صدري وكزة ثم قال : **يا بني! لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لألفيت لها فيه كُلوماً !!**».

❁ ❁ ❁

وابن مهران رحمه الله كان وقّافاً عند حدود الله تعالى ، ولقد كشف بنور بصيرته أنَّ ترك المحرمات .. الظاهرة والباطنة .. أشقّ على النفس من الإقبال على الطاعات ، قال عمر بن ميمون بن مهران : « **ما كان أبي يكثر الصلاة ولا الصيام ، ولكن يكره أن يعصى الله عزَّ وجلّ** » .

وهذا الأمر عند أهل التربية له أهمية وخطورة ، مصداقاً لقول المعصوم ﷺ عند الإمام مسلم : « **مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ... » . لذلك كان ميمون رحمه الله يدعو إلى إرهاف الحسِّ بخصوص الحرام فيقول : « **لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال** » .

ويتأكد هذا المعنى عند التعامل مع الدرهم والدينار ، يقول ابن مهران : « **في المال ثلاث آفات : إن نجا صاحبه من واحدة لم ينج من اثنتين ، وإن نجا من اثنتين كان قميناً أن لا ينجو من الثالثة : ينبغي أن يكون حلالاً طيباً ، فأيكم يسلم كسبه فلم يدخله إلا طيباً ؟! ، فإن سلم من هذه فينبغي أن يؤدي الحقوق التي تلزمه في ماله ، فإن سلم من هذه فينبغي أن يكون في نفقته ليس بمسرف ولا مقتّر** » .

ولله درّ ميمون فقد كان عارفاً بأسرار التشريع ، وبركة بيان ما يجب على المرء تجاه نفسه وتجاه الآخرين ، وفي هذا المعنى يقول : « **لو أن كل إنسان منا يتعاهد كسبه ، فلا يكسب إلا طيباً ، ثم أخرج ما عليه ، ما احتيج إلى الأغنياء ، ولا احتاج الفقراء** » .

❁ ❁ ❁

و لم يفت التابعي العظيم ميمون أن يذكر الناس بـ « **التقوى** » التي تثمر في قلب العبد شعوراً قوياً يقظاً ، بأنه مبعوث بعد الموت ، ومحاسب على عمله .. يقول ميمون : « **لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه ، حتى يعلم من أين مطعمه ، ومن أين مشربه ، أمن حلال ذلك أم**

من حرام ؟ » ويقول أيضاً : « **من كان يريد أن يعلم ما منـــزلته عند الله ؟ فلينظر في عمله ، فإنه قادم عليه كائناً ما كان** » .

ومما يذكره التاريخ أن ابن مهران رحمه الله كان من الولاة الذين استعان بهم الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى .. وقد جرت مراسلة لطيفة بين الرجلين تحمل في كلماتها طيب معدن ميمون وبُعد نظر عمر .. والقصة تقول : « استعمل عمر بن عبد العزيز ميمون بن مهران على الجزيرة – في العراق – وعلى قضائها وخراجها ، فمكث حيناً ثم كتب إلى عمر يستعفيه من ذلك ، وقال : كلفتني ما لا أطيق ، أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق .

فكتب إليه عمر : اجبِ من الخراج الطيب ، واقضِ بما استبان لك ، فإذا التبس عليك أمرٌ فارفعـــه إليّ ، فإن الناس لو كان إذا كبر عليهم أمر تركوه ما قام لهم دين ولا دنيا » .

وقد استفاد ميمون رحمه الله من ممارسة الحكم كثيراً ، ومن جملة ما استفاده قوله : « **الفاسق بمنـــزلة السبع ، فإذا كُلّمْتَ فيه ، فخليت سبيله ، فقد خليت سبعاً على المسلمين** » .

❁ ❁ ❁

وتدلّ سيرته رحمه الله على أنه رجل عاش مع الناس ، وعرف ما يدور بينهم .. لذلك كثر تحذيره من « **فتنة السلطان** » و « **فتنة النساء** » و « **فتنة الآراء** » .

روى الإمام أحمد بسنده إلى ميمون بن مهران أنه قال : « **ثلاث لا تبلون نفسك بهن** :

١– لا تدخل على سلطان وإن قلت آمره بطاعة الله .

٢– ولا تدخل على امرأة – في الخلوة – **وإن قلت أعلّمها كتاب الله .**

٣– ولا تصغينّ بسمعك إلى ذي هوى ، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك من هواه » .

ولا يجهل ذو لبّ أن الاختلاط بالناس يحتاج إلى أخلاق عظيمة:

– تحفظ الإنسان من الانزلاق في صغائرهم ..

– وتدفعه إلى أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكرات ..

– وترفعه إلى مقام العفو والإحسان إلى المسيئين إليه منهم .. فلا ينتقم ممن يظلمه ..

– وتمنحه حسن تأويل ما يصدر عنهم ..

وهذا بعض ما كان يعمل به ويدعو إليه الإمام ميمون بن مهران :

▪ قال ميمون رحمه الله: « **ما بلغني عن أخ مكروه قطّ ، إلا كان إسقاط المكروه عنه أحبّ إليّ من تخفيفه عنه ، فإذا قال: لم أقل. كان قوله : لم أقل أحبّ إليّ من ثمانية يشهدون عليه . فإن قال : قلتُ ولم يعتذر ، أبغضته من حيث أحببته** » .

▪ وكان يقول : سمعت عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول : « ما بلغني عن أخ مكروه قطّ إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل :

– **إن كان فوقي عرفت له قدره**

– وإن كان نظيري تصدقت عليه

– **وإن كان دوني لم أحفل به** » .

▪ قال جعفر بن برقان : « قلت لميمون بن مهران : إن فلاناً يستبطيء نفسه في زيارتك! ، قال : **إذا ثبتت المودة في القلوب فلا بأس وإن طال المكث** » .

▪ وقال جعفر أيضاً : « **قال لي ميمون : قل لي في وجهي ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره** » .

▪ روى الطبراني – عن ميمون رحمه الله – أنه قيل له : **ما لك لا يفارقك أخ لك عن قِلىً ؟! . قال : لأني لا أماريه ولا أشاريه** » .

▪ قال ميمون : « **ثلاث الكافر والمؤمن فيهن سواء : الأمانة تؤديها إلى من ائتمنك عليها من مسلم وكافر ، وبر الوالدين وإن كانا كافرين ، والعهد تفي به للمؤمن والكافر** » .

▪ وقال أيضاً : « لا تعذب المملوك ولا تضربه على كل ذنب ، ولكن احفظ ذلك له ، فإذا عـــصى الله فعاقبه على معصية الله ، وذكّره الذنوب التي بينك وبينه » .

فحريّ بالدعاة إلى الله تعالى أن يأخذوا أنفسهم بمثل هذه الأخلاق التي أشار إليها ابن مهران .. إذا أرادوا المساهمة الجادّة في عملية تجديد معاني الدين في المسلمين .

ونأتي في ختام الكلام عن إمام الجزيرة رحمه الله تعالى إلى ذكر نبذة من كلامه الذي ينفع من ﴿ **كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد** ﴾ :

۞ **ما عرضت قولي على عملي إلا وجدت من نفسي اعتراضا .**

۞ **لأن أوتمن على بيت مال أحبّ إليّ من أن أوتمن على امرأة .**

۞ **لأن أتصدق بدرهم في حياتي أحبّ إليّ من أتصدق بمائة درهم بعد موتي .**

۞ من أساء سراً فليتب سراً ، ومن أساء علانية فليتب علانية ؛ فإن الله يغفر ولا يعيّر ، وإن الناس يعيّرون ولا يغفرون .

۞ إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا تاب محيت من قلبه ، فترى قلب المؤمن مجليّاً مثل المرآة ، ما يأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره .

وأما الذي يتتابع في الذنوب ، فإنه كلما أذنب نُكتت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه ، فلا يبصر الشيطان من أين يأتيه .

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

وهب بن منبه

أخذ وهب بن منبه رحمه الله العلم عن طائفة من أصحاب النبي ﷺ ، وقرأ في كتب الأوائل ، وسمع كثيراً من قصص الغابرين ، وكان ذا صلاح وعبادة .. فأثمر كل ذلك في قلبه الواعي « حكمة » وضعها في خدمة الناس ؛ فعلَّم ووعظ ، واهتم بنصيحة العامة ، وخصَّ أهل الذكر بنقد بناء .

❁ ❁ ❁

تحدث وهب يوماً عن بواعث العبادة فبين أنها ثلاثة : **شكر ، ورجاء ، وخوف** : « حدث عقيل بن معقل أن وهب بن منبه قال : اعمل في نواحي الدين الثلاث ، فإن للدين نواحي ثلاثاً ، هن جماع الأعمال الصالحة لمن أراد جمع الصالحات :

أولاهن : تعمل شكراً لله على الأنعم الكثيرات ، الغاديات الرائحات ، الظاهرات الباطنات ، الحادثات القديمات ، يعمل المؤمن شكراً لهن ورجاء تمامهن .

والناحية الثانية من الدين : أن يعمل المؤمن رغبة في الجنة التي ليس لها ثمن ، وليس لها مثل ، ولا يزهد فيها وفي العمل لها إلا سفيه فاجر ، أو منافق كافر .

والناحية الثالثة من الدين : أن يعمل المؤمن فراراً من النار التي ليس لأحد عليها صبر ، ولا لأحد بها طاقة ولا يدان ، وليست مصيبتها كالمصيبات ، ولا حزن أهلها كالأحزان ؛ نبؤها عظيم ، وشأنها شديد ، وحزنها فظيع ، ولا يغفل عن الفرار والتعوذ منها إلا سفيه أحمق ﴿ ... **خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ [الحج : ١١] » .

❁ ❁ ❁

كان ابن منبه ينقل من كلام الحكماء ما يؤكد على أن العبادة الحقة : **خوف ، وطمع، ومحبة** . « قال ابن المبارك : أخبرني عمر بن عبد الرحمن أنه سمع وهب بن منبه يقول : قال حكيم من الحكماء : إني لأستحي من الله عزَّ وجلَّ أن أعبده رجاء ثواب الجنة فقط ، فأكون كالأجير السوء ، إن أعطي عمل ، وإن لم يعط لم يعمل! .

وإني لأستحي من الله عزَّ وجلَّ أن أعبده مخافة النار فقط ، فأكون كالعبد السوء ، إن رُهِّبَ عمل ، وإن تُرِكَ لم يعمل! وإني ليستخرج مني حبُّ الله ما لا يستخرج مني غيرُه » .

واهتمام ابن منبه بموضوع « **الأخلاق** » دليل لا يرد على تمكنه من فقه التعامل مع الله عزَّ وجلَّ ، وكان شديد الخوف من خلق « **العُجْب** » ، لأنه إذا دخل عبادة شان صاحبها عند الله وعند الناس ، ومن خلق « **الرياء** » الذي لا يكتفي بقتل ثواب العمل ، بل يورد المتلبس به المهالك ؛ « قال عمر بن عبد الرحمن الصنعاني : سمعت وهب بن منبه يقول : لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم ، فقال له : كيف صلاتك ؟ . فقال : ما أحسب أحداً سمع بذكر الجنة والنار يأتي عليه ساعة لا يصلي فيها . قال : فكيف ذكرك للموت ؟ . قال : ما أرفع قدماً ولا أضع أخرى إلا رأيت أني ميت .

فقال العالم : فكيف صلاتك أنت أيها الرجل ؟ . فقال : إني لأصلي وأبكي حتى ينبت العشب من دموعي! فقال العالم : أما إنك إن تضحك وأنت معترف بخطيئتك خيرٌ لك من أن تبكي وأنت مُدِلٌّ بعملك – أي معجب به – فإن المدل لا يُرفع له عمل .

فقال : أوصني فإني أراك حكيما .

فقال : ازهد في الدنيا ، ولا تنازع أهلها فيها ، وكنْ فيها كالنحلة : إن أكلت أكلت طيباً ، وإن وضعت وضعت طيبا . وإن وقعت على عود لم تكسره ، وانصح لله – أي : أخلص لله – نُصْحَ الكلب لأهله ، فإنهم يجيعونه ويطردونه ويضربونه ، وهو يأبى إلا أن يحوطهم ويحفظهم وينصح لهم .

فكان وهب بن منبه إذا ذكر هذا قال : واسوأتاه إذا كان الكلب أنصح لأهله منك يا ابن آدم لله عزَّ وجلَّ » .

❁ ❁ ❁

ولم يكتف وهب ببيان فضل الإخلاص الملازم للاتباع ، بل كان يتبع ذلك بذكر جملة من مكارم أخلاق المؤمنين المقبلين على ربِّ العالمين : رغبةً وخوفاً وحباً « روى الطبراني عن وهب بن منبه أنه قال : إذا أردت أن تعمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ فاجتهد في نصحك – إخلاصك – وعملك ، فإن العمل لا يقبل ممن ليس بناصح ، والنصح لله لا يكمل إلا بطاعة الله ، كمثل الثمرة الطيبة ريحها وطعمها ، كذلك مثل الطاعة : النصح ريحها والعمل طعمها .

ثم زيِّن طاعتك بالحلم والعقل ، والفقه والعمل ، ثم أَكْبِرْ نفسك عن أخلاق السفهاء وعبيد الدنيا ، وعَبِّدْها على أخلاق الأنبياء

والعلماء العاملين ، وعوِّدْها فعل الحكماء ، وامنعها عمل الأشقياء ، وأَلْزِمْها سيرة الأتقياء ، واعزُبْها عن سبيل الخبثاء .

وما كان لك من فضل فأعن به من دونك ، وما كان فيمن دونك من نقص فأعنه عليه حتى يبلغه ؛ فإن الحكيم من جمع فواضله وعاد بها على من دونه ، وينظر في نقائص من دونه فيقوِّمها ويرجيها حتى يبلِّغه : إن كان فقيهاً حمل من لا فقه له إذا رأى أنه يريد صحبته ومعونته ، وإذا كان له مال أعطى منه من لا مال له ، وإذا كان مصلحاً استغفر للمذنب ورجا توبته ، وإذا كان محسناً أحسن إلى من أساء إليه واستوجب بذلك أجره .

ولا يغتر بالقول حتى يحسن منه الفعل ، فإذا أحسن الفعل نظر إلى فضل الله وإحسانه إليه ، ولا يتمنى الفعل حتى يفعله ، فإذا بلغ من طاعة الله مبلغاً ، حمد الله على ما بلغ منها ، ثم طلب ما لم يبلغ منها ، وإذا ذكر خطيئة سترها عن الناس واستغفر الله الذي هو قادر على أن يغفرها .

وإذا علم من الحكمة شيئاً لم يشبعه ، بل يطلب ما لم يبلغ منها ، ثم لا يستعين بشيء من الكذب ، فإن الكذب كالأكلة في الجسد

تكاد أن تأكله ، أو كالأكلة في الخشب : يُرى ظهرها حسناً ، وجوفها نخر ، تغر من يراها حتى تنكسر على ما فيها وتهلك من اغتر بها ، وكذلك الكذب في الحديث لا يزال صاحبه يغتر به ، يظن أنه معينه على حاجته ، ورائدٌ له في رغبته ، حتى يُعرف ذلك منه ، ويتبين لذوي العقول غروره ، فتستنبط الفقهاء ما كان يستخفي به عنهم ، فإذا اطلعوا على ذلك من أمره وتبين لهم ، كذبوا خبره ، وأباروا شهادته ، واتهموا صدقه ، وحقروا شأنه ، وأبغضوا مجلسه ، واستخفوا منه بسرائرهم ، وغيبوا عنه أمرهم ، وحذروه على دينهم ومعيشتهم ، ولم يحضروه شيئاً من محاضرهم ، ولم يأمنوه على شيء من سرهم ، ولم يحكموه فيما شجر بينهم » .

❁ ❁ ❁

ولله درُّ ابن منبه على اهتمامه الكبير بإخلاص العمل لله ربِّ العالمين، « سئل يوماً عن رجلين يصليان، أحدهما أطول قنوتاً وصمتاً، والآخر أطول سجوداً، فأيهما أفضل؟. فقال: أنصحهما لله عزَّ وجلَّ » لذلك كان يدعو إلى الإسرار بالعمل الصالح ما استطاع العبد إلى ذلك سبيلا: « روى الطبراني بسنده إلى عقيل بن معقل بن منبه ، قال: سمعت عمي وهب بن منبه يقول: يا بني أخلص طاعة الله بسريرة ناصحة يصدق بها فعلك في العلانية ، فإن من فعل خيراً ثم أسره إلى الله فقد أصاب مواضعه، وأبلغه قراره، ووضعه عند حافظه. وإن من أسر عملاً صالحاً لم يطلع عليه إلا الله ، فقد اطلع عليه من هو حسبه ، واستحفظه واستودعه حفيظاً لا يضيع أجره ، فلا تخافن يا بُنيَّ على من عمل صالحاً أسره إلى الله عزَّ وجلَّ ضياعاً، ولا تخافن ظلمه ولا هضمه، ولا تظن أن العلانية هي أنجح من السريرة ، فإن مثل العلانية مع السريرة كمثل ورق الشجر مع عرقها: العلانية ورقها والسريرة أصلها، إن يحرق العرق هلكت الشجرة كلها، وإن صلح الأصل صلحت الشجرة: ثمرها

وورقها » .

❁ ❁ ❁

ولقد وضع ابن منبه يده على عوامل فلاح الأمم ودمارها .. فمن دواعي الرفعة أن يظهر في الأمة خلق « **الزهد** » ومعناه الأصلي « **إخراج حبِّ الدنيا من القلب** » ، فإذا خرجت الدنيا من القلوب كان وجودها في جيوب المؤمنين عوناً على فعل الخيرات .. أما إذا دخل حب الدنيا إلى القلوب فإن الشح واتباع الهوى يبرزان ، وهما عند أولي النُّهى علة العلل « قال سفيان بن عيينة : قال وهب بن منبه : أَعْوَنُ الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا ، وأسرعها ردّاً اتباع الهوى وحب المال والشرف ، ومن حبِّ المال والشرف تنتهك المحارم ، ومن انتهاك المحارم يغضب الربّ ، وغضب الله ليس له دواء » .

وما ألطف قول ابن منبه في هذا الباب : « **أزهد الناس في الدنيا – وإن كان عليها حريصاً – من لم يرض منها إلا بالكسب الحلال الطيب مع حفظ الأمانات . وأرغب الناس فيها – وإن كان عنها معرضاً – من لم يبال من أين كسبه منها حلالاً كان أو حراما . وإن أجود الناس من جاء بحقوق الله عزَّ وجلَّ ، وإن رآه الناس بخيلاً فيما سوى ذلك ، وإن أبخل الناس في الدنيا من بخل بحقوق الله عزَّ وجلَّ ، وإن رآه الناس جواداً فيما سوى ذلك** » .

❁ ❁ ❁

ولئن كان ابن منبه يرى في حبِّ الدنيا سبباً لضياع الأمة ، فإنه لم يغب عنه أن ظلم أصحاب السلطان سبب رئيس في سقوط الأمم أيضاً ، وفي هذا المعنى يقول : « **إذا همَّ الوالي بالجور ، أو عمل به ، دخل النقص على أهل مملكته ، وقلَّت البركات في التجارات والزراعات والضروع والمواشي ، ودخل الْمَحْق في ذلك ، وأدخل الله عليه الذلَّ في ذاته وفي ملكه . وإذا همَّ بالعدل والخير كان عكس ذلك ، من كثرة الخير ونمو الخيرات** » .

❁ ❁ ❁

ومن الأخلاق التي كان يدعو إليها ابن منبه خلق « **التوكل على الله عزَّ وجلَّ** » ، ولا عجب في ذلك ، فالتوكل – كما يرى ابن القيم في « مدارج السالكين » – نصف الدين ، والنصف الثاني الإنابة : « فإن الدين استعانة وعبادة ؛ فالتوكل هو الاستعانة ، والإنابة هي العبادة ، بل هو محض العبودية وخالص التوحيد ، إذا قام به صاحبه حقيقة » وقد أخذ ابن القيم رحمه الله هذه المعاني من قوله تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٥] . « **جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : علِّمني شيئاً ينفعني الله به . فقال وهب : أكثر من ذكر الموتِ ، وأقْصر أمَلَك ، وخصلة إن أنت أصبتها بلغت الغاية القصوى ، وظفرت بالعبادة الكبرى . قال : وما هي ؟ . قال : التوكل** » .

ويرى ابن وهب أن « النمَّام » الذي ينقل أخبار السوء بين الناس ، ليس أهلاً لاحترام أو لقبول كلامه « عن منير مولى الفضل بن عياش قال : كنت جالساً مع وهب ابن منبه فأتاه رجل فقال له : إني مررت بفلان وهو يشتمك . فغضب وقال : ما وجد الشيطان رسولاً غيرك ؟!! . فما برحت من عنده حتى جاءه ذلك الشاتم ، فسلَّم على وهب ، فردَّ عليه السلام ، ومدَّ يده إليه وصافحه وأجلسه إلى جنبه » .

❁ ❁ ❁

ومن لفتات ابن وهب الرائعة ملاحظته أن « **الطائع** » مجاهد عظيم ، وأن « **العاصي** » جبان ذليل : « **قال ابن المبارك عن بكر ابن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : مرَّ رجل عابد على رجل عابد فرآه مفكراً ، فقال له : مالك ؟ . فقال : أعجب من فلان ، إنه قد بلغ من عبادته ما بلغ ، ثم مالت به الدنيا!! . فقال : لا تعجب ممن مال كيف مال ؟! ، ولكن اعجب ممن استقام كيف استقام!** » .

❁ ❁ ❁

وكان مما برع فيه وهب أنه كان واعظاً مؤثراً ، فمن مواعظه الجامعة لأبواب من الخير قوله :

« **يا ابن آدم! إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك ، وأقام عندك ما سيذهب ، فما الجزع مما لا بدَّ منه ؟! ، وما الطمع فيما لا يرتجى ؟! ، وما الحيلة في بقاء ما سيذهب ؟!** .

يا ابن آدم! إنما الصبر عند المصيبة ، وأعظم من المصيبة سوء الخلق منها .

يا ابن آدم! أي أيام دهرك ترتجي ؟ .. انظر إلى الدهر تجده ثلاثة أيام : يوم مضى لا ترجوه ، ويوم لا بدَّ منه ، ويوم يجيء لا تأمنه ، فأمس شاهدٌ عليك مقبول ، وأمينٌ مؤدٍّ ، وحكيمٌ مؤدب ، قد فجعك بنفسه وخلف فيك حكمته . واليوم صديقٌ مودع ، كان طويل الغيبة عنك ، وهو سريع الظعن .. وقد مضى قبله شاهد عدل » . وقوله : « **أيها الناس !! إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، وإن ما أنتم فيه من دنياكم نهب للمصائب ، لا تنالون فيها نعمة إلا بفراق الأخرى ، ولا يستقبل منكم معمِّر يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، ولا يتخذ له زيادة في ماله إلا بنفاد ما قبله من رزقه ، ولا يحي له أثر إلا مات له أثر** » .

❁ ❁ ❁

ولم يغب عن ابن منبه ، وهو المربي البصير بأدواء النفوس ، مرض « **وهن العزيمة** » الذي يصيب إرادة العمل الصالح بمقتل ، لذلك كان يبين أن رحمة الله تعالى إنما تنال بطاعته ، وأن الله تعالى ييسّر الطاعة لمن طلبها بإخلاص ، روى الطبراني عن عقيل بن منبه قال : سمعت عمي وهب بن منبه يقول : « **الأجر من الله عزَّ وجلَّ معروض ، ولكن لا يستوجبه من لا يعمل ، ولا يجده من لا يبتغيه ، ولا يبصره من لا ينظر إليه** .

وطاعة الله قريبة ممن يرغب فيها ، بعيدة ممن زهد فيها ، ومن يحرص عليها يصل إليها ، ومن لا يحبها لا يجدها ؛ لا تسبق من سعى إليها ، ولا يدركها من أبطأ عنها ، وطاعة الله تشرف من أكرمها ، وتهين من أضاعها ، وكتاب الله يدلّ عليها ، والإيمان بالله يحضّ عليها » .

❁ ❁ ❁

وكان وهب رحمه الله تعالى مهتماً بنصيحة العلماء ، لأنهم الأدِلاء علماً وقدوة، ولنتأمل هذه القصة المعبرة عن مبلغ اهتمامه باستقامة أهل العلم « قال وهب بن منبه لعطاء الخراساني : **ويحك يا عطاء! ألم أُخبر أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك وأبناء الدنيا ، وأبواب الأمراء ؟! . ويحك يا عطاء! أتأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره ، ويواري عنك غناه ، وتترك باب من يقول :** ﴿ ... **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ...﴾ [غافر: ٦٠] ؟! .

ويحك يا عطاء! إن كان يغنيك ما يكفيك ، فأوهن ما في الدنيا يكفيك ، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك ، فليس في الدنيا شيء يغنيك ، إنما بطنك بحر من البحور وواد من الأودية ، ولا يملؤه شيء إلا التراب » . وقال له في موضع آخر :

« **كان العلماء قبلكم قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، فكانوا لا يلتفتون إلى أهل الدنيا ، ولا إلى ما في أيديهم ، فكان أهل الدنيا يبذلون إليهم دنياهم رغبة في علمهم . فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في الدنيا ، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم . فإياك يا عطاء وأبواب السلطان ، فإن عند أبوابهم فتناً .. ، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله** » .

❁ ❁ ❁

ونختم الكلام عن واعظ التابعين وهب بن منبه رحمه الله بطائفة من كلامه الحسن الجميل :

❁ طوبى لمن نظر في عيبه عن عيب غيره . وطوبى لمن تواضع لله من غير مسكنة ، ورحم أهل الذلّ والمسكنة ، وتصدَّق من مال جمعه من غير معصية ، وجالس أهل العلم والحلم والحكمة ، ووسعته السنة ، ولم يتعدها إلى البدعة .

❁ **ثلاثٌ من كن فيه أصاب البر : سخاوة النفس ، والصبر على الأذى ، وطيب الكلام .**

❁ **المؤمن يخالط الناس ليعلم ، ويسكت ليسلم ، ويتكلم ليفقههم ، ويخلو ليقيم .**

❁ **ترك المكافأة من التطفيف .**

۞ رؤوس النعم ثلاثة : إحداها : نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها ، والثانية : نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها ، والثالثة : نعمة الفتن التي لا يتم العيش إلا بها .

۞ احفظوا عني ثلاثاً: إيَّاكم وهوى متبعاً، وقرين سوء، وإعجابَ المرء بنفسه.

۞ مثلُ الذي يدعو بغير عمل ، مثلُ الذي يرمي بغير وتر .

۞ من يتعبدْ يزددْ قوةً ، ومن يتكسَّلْ يزددْ فترة .

۞ تصدق صدقة رجل يعلم أنه إنما قدَّم بين يديه ماله، وما خلَّف مالُ غيره.

۞ من خصال المنافق أن يحب الحمد ويكره الذمّ ، أي يحب أن يحمد على ما لم يفعل ، ويكره أن يذمّ بما فيه .

۞ وقال وهب لرجل من جلسائه : ألا أعلمك طباً لا يتعايا فيه الأطباء ، وفقهاً لا يتعايا فيه الفقهاء، وحلماً لا يتعايا فيه الحكماء ؟ . قال : بلى يا أبا عبد الله . قال : أما الطب ، فلا تأكل طعاماً إلا سميت الله على أوله وحمدته على آخره . وأما الفقه ، فإن سئلت عن شيء عندك فيه علم فأخبر بما تعلم ، وإلا فقل : لا أدري . وأما الحلم ، فآثر الصمتَ إلا أن تُسأل عن شيء .

۞ لا يكون المرء حكيماً حتى يطيع الله عزَّ وجلّ .. ولا يعصي الله إلا أحمق .

۞ إذا كان في الصبي خلقان : الحياءُ والرهبةُ ، طُمِعَ في رُشده .

۞ المؤمن مفكر مذكر مدخر ؛ تذكَّر فغلبته السكينة ، سكن فتواضع فلم يتهم ، رفض الشهوات فصار حرّاً ، ألقى عنه الحسد فظهرت له المحبة ، زهد في كل فانٍ فاستكمل العقل ، رغب في كل باقٍ فعقل المعرفة ، قلبه متعلق بهمِّه ، وهمُّه موكَّلٌ بمعاده ؛ لا يفرح إذا فرح أهل الدنيا ، بل حزنه عليه سرمد ، وفرحُه إذا نامت العيون ، يتلو كتاب الله ويردده على قلبه ؛ فمرةً يفزع قلبُه ، ومرةً تدمع عينيه ، يقطع عنه الليل بالتلاوة ، ويقطع عنه النهار بالخلوة والعزلة : مفكِّراً في ذنوبه ، مستصغراً لأعماله .

جابر بن زيد

بزغت شمس أبي الشعثاء جابر بن زيد في سماء جيل التابعين مضيئة بالعلم الرباني ، وشهد له بأصالة الفهم وسعة المعرفة صحابةٌ وتابعون ؛ فهذا الصحابي الجليل جابر بن عبد الله ﷺ كان يقول لأهل البصرة حين يتوجهون إليه بأسئلتهم : « كيف تسألون وفيكم أبو الشعثاء ؟! » . وحين رأى إقبال الناس على أبي الشعثاء نصحه فقال : « يا ابن زيد ! إنك من فقهاء البصرة ، وإنك ستُستفتى ، فلا تُفتينَّ إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فإنك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت » .

وهذا لعمري هو الفقه الحقيقي ، إذ لا يصح أن يفتي العالم إلا بقرآن ناطق ، أي : بحجة واضحة بيّنة الدلالة ، أو ســـنة ماضية ، أي : صحيحة السند معلومة المعنى ، فإذا خالف عالم هذا المنهج كان وبالاً على الناس وعلى نفسه .

❁ ❁ ❁

وقد حفظ أبو الشعثاء هذا التوجيه الكريم ، وشهد له أهل العلم بدقة الفهم وسلامة النهج . يقول عمرو بن دينار : « **ما رأيت أحداً أعلم بفتيا من جابر بن زيد** » ولما دفن أبو الشعثاء قال قتادة : « **اليوم دُفن أعلم أهل الأرض** » . وإن من دلائل علم أبي الشعثاء رحمه الله تعالى ما ذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » عن محمد ابن سيرين قال : « **كان أبو الشعثاء مسلماً عند الدينار والدرهم** » وقال ابن كثير معلقاً على هذه الشهادة : كما قيل :

إني رأيت فلا تظنوا غيره أن التورع عند هذا الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

والذي خبر الدنيا والناس يدرك معنى أن يكون المرء مسلماً عند الدينار والدرهم ، فالإنسان يمر بامتحانين في علاقته مع المال ؛

الأول : من أين يحصل على المال ؟ وكيف ؟

الثاني : هل يحبسه عن واجب وحاجة ؟

ومن يدقق النظر في أحوال معظم الناس يجد أن « **الطمع** » يدفعهم إلى ألوان من الحيل والخداع والمذلة ، وربما الظلم والعدوان ، من أجل الدينار والدرهم ، ويرى الناظر كثيرين يدفعهم « **الشح** » إلى منع المال عن

السير في سبيل الخير ، فإذا كان المرء طماعاً شحيحاً ، لم يكن إسلامه كاملاً ، وكان المال وبالاً عليه . لذلك كان أبو الشعثاء رحمه الله تعالى يرى أن أعظم العبادات هي تلك التي يرافقها إنفاق للمال . يقول رحمه الله تعالى : « **نظرت في أعمال البر فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال ، والصيام مثل ذلك ، والحج يجهد المال والبدن ، فرأيت أن الحج أفضل من ذلك** » .

❁ ❁ ❁

وللإمام جابر بن زيد رحمه الله تعالى اجتهاد ينم عن فقه عميق للإسلام ومقاصده وللواقع وحاجاته وضروراته ، ومن ذلك – على سبيل المثال – البعد عن حصر معنى العبادات في الشعائر التعبدية ، والنظر إلى حياة الناس بالاعتماد على فقه الأولويات وفقه الموازنات ، ولقد أكبرت فيه رحمه الله تعالى هذا الجانب العلمي عندما قرأت قوله : « **لأنْ أتصدق بدرهم على يتيم ومسكين أحب إلي من حجة بعد حجة الإسلام** » . فمثل هذه الفتوى جديرة بالتأمل العميق في زماننا الذي نعيش أيامه ونتحسّس آلامه ، لأن غالبية المسلمين عندهم استعداد لدفع مبالغ طائلة من المال ، مرة بعد مرة من أجل القيام بنوافل الأعمال ، مثل العمرة ، والحج: بعد حجة الإسلام ، أي حجة الفريضة . والغريب العجيب أن يسفه ناس ، يظنون أنهم على شيء من العلم والغيرة ، كل من يقول : يجب على الذين ينفقون أموالهم في نوافل الأعمال ، كالحج والعمرة ، أن يرتبطوا بواقع أمتهم وأن يعيشوا همومها ، ومن علائم هذا الاهتمام أن يقدروا الحاجة إلى المال لسد ثغرات الفقر والحرمان والمرض ، التي تلج منها بسهولة جيوش المتربصين الغرباء حاملين الطعام والكساء والدواء إلى المحتاجين، ومن خلال الخدمات والمساعدات ينشرون أفكارهم وسلوكهم وعاداتهم !! ؛ فإذا عرف المسلمون واقعهم وفق منهج الفقه الإسلامي الأصيل ، فإنهم سيسارعون إلى إنفاق المال في تحصين أمتهم ، ودعم مسيرتها التجديدية التنموية ، وسد حاجات اليتامى والفقراء والمساكين ، وسيشعرون أن هذا الإنفاق يقربهم من الله تعالى كأنهم طافوا بالبيت العتيق .

❁ ❁ ❁

وكان أبو الشعثاء ناصحاً للمسلمين ، ومن نصيحته لهم ما قاله صالح الدهان : « **كان جابر بن زيد إذا وقع في يده ستوق[٦] كسره ورمى به لئلا يغر به مسلم** » .

رحم الله جابر بن زيد فقد كان بصره مشدوداً إلى الآخرة ، يرجو رحمة الله ويخاف العذاب ، قال الحجاج بن عيينة : « كان جابر يأتينا في مصلانا ، فأتانا ذات يوم وعليه نعلان خَلِقانِ[٧] فقال : مضى من عمري ستون سنة ، نعلاي هاتان أحب إلي مما مضى منه ، إلا أن يكون خير قدمته » . وقال الحارث بن عمير: « قالوا لجابر بن زيد عند الموت : ما تشتهي وما تريد ؟. قال : نظرة إلى الحسن البصري ، وفي رواية

(6) الستوق : الدرهم المغشوش ، المزور
(٧) خلقان : أي باليان .

عن ثابت قال : فأتيت الحسن فأخبرته ، فركب إليه ، فلما دخل عليه قال لأهله : أقعدوني ، فجلس فمـــازال يقول : أعوذ بالله من النار وسوء الحساب » .

❁ ❁ ❁

ونختم الحديث عن جوانب من حياة أبي الشعثاء رحمه الله تعالى بقوله : « **إذا جئت يوم الجمعة إلى المسجد فقف على الباب وقل : اللهم اجعلني أوجَه من توجه إليك ، وأقرب من تقرب إليك ، وأنجع من دعاك ورغب إليك** » .

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

سعيد بن المسيّب

أطلق التابعون على سعيد بن المسيّب لقب « فقيه الفقهاء » وشهد الصحابة والتابعون لسعيد رحمه الله تعالى بسعة العلم ودقة الفهم . قال ابن عمر رضي الله عنهما : « كان سعيد أحد المتقنين » ، وقال الإمام الزهري عنه : « جالسته سبع حجج وأنا لا أظن عند أحد علماً غيره » ، أما مكحول فيقول : « طفت الأرض كلها في طلب العلم ، فما رأيت أعلم من سعيد بن المسيب » . وينقل الإمام الأوزاعي هذا الخبر : « سئل الزهري ومكحول : من أفقه من لقيتما ؟ قالا : سعيد بن المسيب » .

❁ ❁ ❁

تحدث سعيد بن المسيب نفسُه عن جلده وصبره في طلب العلم فقال : « **كنت أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد** » ، وقد أثمر صبره وسعيه ، فكان مرجعاً في المسلمين ، واطمأن العلماء إلى فقهه . يقول الإمام مالك : « **بلغني أن ابن عمر كان يرسل إلى سعيد بن المسيب يسأله عن قضايا عمر وأحكامه** » وشهد الإمام الجليل علي بن المديني في ابن المسيب هذه الشهادة : « **لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه ، وإذا قال سعيد : مضت السنة ، فحسبك به ، وهو عندي أجلُّ التابعين** » .

❁ ❁ ❁

ذكر أحمد بن عبد الله العجلي أن أسباب نبل سعيد أربعة : **استقامة قلب ، وفقه عقل ، وعفة يد ، واستقلال مالي** ، وقد جمع هذا كله في قوله فيه : « **كان سعيد رجلاً صالحاً فقيهاً ، كان لا يأخذ العطاء ، وكانت له بضاعة أربعمائة دينار ، وكان يتجر في الزيت** » .

ولعمري .. فإن العالم لا ينتفع بعلمه ، ما لم يكن قلبه صالحاً ، يتلقى العلم للعمل لا لمجرد المعرفة . وكيف يستقيم علم عالم وعمله إذا كانت الدنيا أكبر همه ، وارتبطت معيشته بالسلطان الظالم ؟ . فقديماً قيل : « من أكل من بيت السلطان كان عليه أن يضرب بسيفه » . وهذا ما نراه ماثلاً أمام أعيننا في كثير من العلماء الرسميين !! ، ولهذا كان ابن المسيب يكره مجالسة أعوان الظلمة ، فضلاً عن الظلمة أنفسهم ، ويقول ناصحاً ومحذراً : « **لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم ، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة** » . وكان يرى أن يعمل العالم لكسب عيشه ، لأن « الحرص يذلّ أعناق الرجال » . وما أجمل دعاءه وأجمعه حين يقول في مناجاته مولاه عزَّ وجلَّ في المال الذي كان يتجر فيه :

« **اللهم إنك تعلم أني لم أمسكه بخلاً ولا حرصاً عليه ، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها ، وإنما أريد أن أصون به وجهي عن بني مروان .. وأصل منه رحمي ، وأؤدي منه الحقوق التي فيه ، وأعود منه على الأرملة**

والفقير والمسكين واليتيم والجار » .

❁ ❁ ❁

نظر ابن المسيب في أسباب هلاك الناس فرآها تجتمع في أمرين : **شهوة جامحة مستحكمة ، وصنم الدنيا** :

❁ يقول رحمه الله : « **ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء** » .

❁ ويقول : « **الدنيا نذلة ، وهي إلى كل نذل أميل ، وأنذل منها من أخذها من غير وجهها ووضعها في غير سبيلها** » .

❁ ❁ ❁

ورحم الله سعيداً فقد كان عارفاً بمعادن الناس ، وكان يدعو إلى إنزال الناس منازلهم ، ويحذر من مغبة إسقاط هيبة العلماء الثقاة ، والزعماء الصالحين ، وأهل السابقة بالخير .. لمجرد الوقوف على جانب ضعف في حياتهم .. يقول رحمه الله تعالى : « **إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس من ينبغي ألا تذكر عيوبه** » . ويرشد إلى ميزان العدل في تقويم الرجال ، وذلك في قوله الرائع : « **من كان فضلُه أكثر من نقصه وُهِبَ نقصُه لفضله** » .

❁ ❁ ❁

ونختم كلامنا عن فقيه الفقهاء رحمه الله تعالى بقصة طريفة ذكرها ابن كثير في « البداية والنهاية » : « قال الواقدي وغيره : وحجَّ هذه السنة – إحدى وتسعين للهجرة – أمير المؤمنين الوليد ابن عبد الملك ، فلما قرُب من المدينة أمر عمرُ بنُ عبد العزيز – وكان والياً عليها – أشرافَ المدينة فتلقوه ، فرحب بهم وأحسن إليهم ، ودخل المدينة النبوية ، فأُخلي له المسجد النبوي ، فلم يبق به أحد سوى سعيد بن المسيب ، لم يتجاسر أحدٌ أن يخرجه ، وإنما عليه ثياب لا تساوي خمسة دراهم .

فقالوا له : تنحَّ عن المسجد أيها الشيخ فإن أمير المؤمنين قادم . فقال : والله لا أخرج منه ، فدخل الوليد المسجد فجعل يدور فيه .. قال عمر بن عبد العزيز : وجعلت أعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه ، فحانت منه التفاتة فقال : من هذا ؟ هو سعيد بن المسيب ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ولو علم بأنك قادم لقام إليك وسلّم عليك . فقال : قد علمت بغضه لنا . فقلت : يا أمير المؤمنين إنه وإنه ، وشرعت أثني عليه ، وشرع الوليد يثني عليه بالعلم والدين .

فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر – وإنما قلت ذلك لأعتذر له – فقال نحن أحق بالسعي إليه . فجاء فوقف عليه فسلم عليه ، فلم يقم له سعيد . ثم قال الوليد : كيف الشيخ ؟ فقال : بخير والحمد لله ، كيف أمير المؤمنين ؟ . فقال الوليد : بخير والحمد لله وحده . ثم انصرف وهو يقول : هذا فقيه الناس » .

عروة بن الزبير

شهد العلماء المحققون أن عروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما كان من أبرز علماء جيل التابعين، العاملين بعلمهم في الرخاء والشدة ، والناشرين له بين الناس ، يقول محمد بن سعد : « كان عروة ثقة ، كثير الحديث ، عالماً ، مأموناً ثبتاً » ، ويقول العجلي : « مدني تابعي ، رجل صالح لم يدخل في شيء من الفتن » وينقل ابن كثير في (البداية والنهاية) قول الواقدي في عروة رحمه الله : « كان فقيهاً عالماً ، حافظاً ثبتاً حجة ، عالماً بالسيّر ، وهو أول من صنف في المغازي ، وكان من فقهاء المدينة المعدودين ، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه، وكان أروى الناس للشعر » ، وقال عمر بن عبد العزيز : « ما أعلم أحداً أعلم من عروة » . قال ابن كثير : « ذكره غير واحد في فقهاء المدينة السبعة الذين يُنتهى إلى قولهم ، وكان من جملة الفقهاء العشرة الذين كان عمر بن عبد العزيز يرجع إليهم في زمن ولايته على المدينة » . ونختم شهادة العلماء في عروة رحمه الله تعالى بقول الإمام الجليل الزهري : « كان عروة بحراً لا ينـــزف ولا تكدره الدلاء » .

❁ ❁ ❁

ولا يستغرب هذا العلم الكبير وهذا الالتزام الحازم من رجل تربى في كنف أحد المبشرين بالجنة الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وأشرفت على تنشئته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، وتولت خالته الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تعليمه وتأديبه ، ومن ذلك دفعه إلى مجالس العلماء ، روى مسلم هذه القصة المعبرة : عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : قَالَتْ لِي عَائِشَةُ : يَا ابْنَ أُخْتِي ، بَلَغَنِي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو مَارٌّ بِنَا إِلَى الْحَجِّ ، فَالْقَهُ فَسَائِلْهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ حَمَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عِلْمًا كَثِيرًا » . قَالَ : فَلَقِيتُهُ فَسَاءَلْتُهُ عَنْ أَشْيَاءَ يَذْكُرُهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . قَالَ عُرْوَةُ : فَكَانَ فِيمَا ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ ، فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ ، وَيُبْقِي فِي النَّاسِ رُءُوسًا جُهَّالاً يُفْتُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ** » . قَالَ عُرْوَةُ : فَلَمَّا حَدَّثْتُ عَائِشَةَ بِذَلِكَ أَعْظَمَتْ ذَلِكَ وَأَنْكَرَتْهُ . قَالَتْ : أَحَدَّثَكَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ هَذَا ؟! . قَالَ عُرْوَةُ :حَتَّى إِذَا كَانَ قَابِلٌ – أي العام التالي – قَالَتْ لَهُ: إِنَّ ابْنَ عَمْرٍو قَدْ قَدِمَ المدينة ، فَالْقَهُ ثُمَّ فَاتِحْهُ حَتَّى تَسْأَلَهُ عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ لَكَ فِي الْعِلْمِ . قَالَ فَلَقِيتُهُ فَسَاءَلْتُهُ ، فَذَكَرَهُ لِي نَحْوَ مَا حَدَّثَنِي بِهِ فِي مَرَّتِهِ الأُولَى ، قَالَ عُرْوَةُ : فَلَمَّا أَخْبَرْتُهَا بِذَلِكَ قَالَتْ : مَا أَحْسَبُهُ إِلاَّ قَدْ صَدَقَ ، أَرَاهُ لَمْ يَزِدْ فِيهِ شَيْئًا وَلَمْ يَنْقُصْ) .

❁ ❁ ❁

وما أروع أن يكون المسلم إنساناً عظيماً في بيته وعند أهله ، قبل أن يكون كبيراً في أعين الناس ، فهذا

هشام بن عروة يصرح بمكانة والده العلمية والعملية فيقول : « **العلم لواحد من ثلاثة : لذي حسب يزين به حسبه ، أو ذي دين يسوس به دينه ، أو مختلطٍ بسلطان يتحفه بنعمه ويتخلص منه بالعلم فلا يقع في هلكة. ولا أعلم أحداً أشترطه لهذه الثلاثة إلا عروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز** » .

وأثمر العلم النافع في قلب وسلوك أبي عبد الله عروة رحمه الله تعالى برودة يقين عبر عنها بخلقين عظيمين ، إنهما **الصبر والشكر** . جاء في « البداية والنهاية » أن فساداً قد ألم برجل عروة ، فاضطر إلى قطعها ، ووقع في هذه الليلة التي قطعت فيها رجله أن توفي أحب أبنائه إليه محمد بن عروة ، فدخل الناس على عروة يعزونه ، فقال :

« **اللهم لك الحمد ؛ كانوا سبعة فأخذت واحداً وأبقيت ستة ، وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، فلئن كنت قد أخذت فلقد أعطيت ، ولئن كنت قد ابتليت فقد عافيت** » .

ونقل ابن كثير عن الأوزاعي قوله : « لما نشرت رجل عروة قال : اللهم إنك تعلم أني لم أمش بها إلى سوء قط ، وأنشد – والأبيات لمعن بن أوس – :

لعمْركَ ما أهويتُ كفي لريبةٍ ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
ولست بماشٍ ما حييتُ لمنكرٍ من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثرٌ نفسي علىذي قرابة وأوثرُ ضيفي ما أقام على أهلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبةٌ من الدهر إلا قد أصابت فتىً مثلي

وكان رحمه الله تعالى كثير الابتهـــال إلى الله ، يدعوه راجياً رحمته خائفاً من عذابه ، وكان يناجي ربه بهمومه وحاجاته مهما دقت ، وفي هذه القصة ما يوحي بهذه المعاني الكريمة التي يحتاج إليها كل مسلم : « **رأى عروة رجلاً يصلي صلاة خفيفة فدعاه فقال : يا أخي ! أما كانت لك إلى ربك حاجة في صلاتك ؟ إني لأسأل الله في صلاتي حتى أسأله الملح** » .

❁ ❁ ❁

وكان الإمام العظيم عروة بن الزبير يحرص على توضيح أمرين لهما آثار بليغة في السلوك :

١- ضرورة التخلق بالحلم عندما تهجم على المسلم المزعجات ، والحلم يعني ضبط النفس عند وقوع ما يثيرها ، والبعد عن التصرف من غير تقدير للنتائج ، وهذا التوجيه الكريم نأخذه من قول عروة : « **رُبَّ كلمة ذلٍ احتملتها أورثتني عزاً طويلاً** » .

٢- وجوب التمسك بفعل الخير عن رغبة في إنقاذ النفس من المهلكات والابتعاد عن الإصرار على الأخطاء ، وإن كانت من الصغائر ، لأن المصر على خطأ قد يستمرئ الوقوع في أخطاء كثيرة ، وما أعظمها نصيحة يتوجه بها الأب الرحيم إلى بنيه : « **إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة فاعلموا أن لها عنده أخوات ، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة فاعلموا أن لها عنده أخوات ؛ فإن الحسنة تدل على أختها ، والسيئة تدل على أختها** » .

❁ ❁ ❁

ونختم بخلق الكرم الذي كان أصيلاً في عروة رحمه الله ، ومن ذلك أنه كان إذا دخل حائطه - بستانه- ردد هذه الآية : ﴿ **وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ... ﴾ [الكهف : ٣٩] . وكان أيام الرطب[٨] يثلم حائطه -يفتح فتحة في جدار بستانه- للناس فيدخلون ويأكلون ، فإذا ذهب الرطب أعاده .

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(٨) الرطب : ما نضج من البُسر قبل أن يصير تمراً .

بلال بن سعد

يُعدّ أبو عمرو بلال بن سعد من كبار زهّاد التابعين .. وكان أهل زمانه يرونه من العُبّاد الصُوّام القُوّام، ومن الوُعّاظ البلغاء ، قال الأوزاعي : « ما رأيت واعظاً قط مثله » ، وقال عنه أيضاً : « ما بلغني عن أحد من العبادة ما بلغني عنه » .

❁ ❁ ❁

وصدق الأوزاعي رحمه الله .. فإن آثار ابن سعد زاخرة بالمواعظ البليغة النفيسة .. ومن ذلك تشديده النكير على من أنساهم حبُّ الدنيا ذكرَ الله عزَّ وجلَّ .. وخاصة إذا كانوا من أهل العلم والعبادة ، فحبُّ الدنيا إذا دخل قلب عالم نال من علمه فجهَّلَه .. وإذا تمكّن من مجتهد في العبادة ألزمه التقصير .. يقول أبو عمرو رحمه الله تعالى :

« والله لكفى به ذنباً أن الله يزهدنا في الدنيا ، ونحن نرغب فيها !! .. زاهدكم راغب ، وعالمكم جاهل ، ومجتهدكم مقصّر » . ويقول أيضاً : « عباد الرحمن! ، لو أنكم لم تَدَعوا إلى الله طاعة إلا عملتموها ، ولا معصية إلا اجتنبتموها ، إلا أنكم تحبون الدنيا لكفاكم ذلك عقوبة عند الله عزَّ وجلّ » .

❁ ❁ ❁

لذلك كان رحمه الله يكثر من التذكير بالآخرة .. دار النعيم والكرامة للطائعين .. ودار الحسرة والندامة للفساق والغافلين . وحريٌّ بالمسلم الذي يتطلع إلى جنّة الخلد ورضوان من الله أكبر ، أن يتأمل هذه الموعظة الجامعة التي لمس فيها ابن سعد رحمه الله طائفة من المسائل المساعدة على النجاة : ﴿ **يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيم** ﴾ [الشعراء : ٨٨-٨٩] .

{عباد الرحمن! ، إنكم تعملون في أيام قصار لأيام طوال ، وفي دار زوال إلى دار مقام ، وفي دار حَزْنٍ – أي شدّة – ونَصَبٍ – أي تعبٍ – لدار نعيم وخلود ، فمن لم يعمل على يقين فلا ينتفعن .

عباد الرحمن! ، لو قد غفرت خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون لكم شغلا!

عباد الرحمن! ، أما ما وُكلتم به فتضيعونه! ، وأما ما تكفّل الله لكم به فتطلبونه! ، ما هكذا نعت الله عباده الموقنين ، أَذَوو عقولٍ في الدنيا وبُلْهٌ في الآخرة ؟! ، وعُمْيٌ عما خُلِقْتُم له بُصَراء في أمر الدنيا ؟! ، فكما ترجون رحمة الله بما تؤدون من طاعته ، فكذلك أشفقوا من عذابه بما تنتهكون من معاصيه .

عباد الرحمن! ، هل جاءكم مُخبرٌ يخبركم أن شيئاً من أعمالكم قد تُقُبِّلَ منكم ؟! ، أو شيئاً من خطاياكم قد غُفِرَ لكم ؟! ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، والله لو عُجِّلَ لكم الثوابُ في الدنيا لاستقلَلْتم ما فُرِضَ عليكم ، أترغبون عن طاعة الله لدار معمورة بالآفات ؟! ، ولا ترغبون وتنافسون في جنة ؛ أُكُلُها دائم وظِلّها ، وعرضها عرض الأرض والسماوات : ﴿ ... **تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ** ﴾ [الرعد : ٣٥]} .

❁ ❁ ❁

ولقد وضع بلال بن سعد يده على الداء العضال .. الذي إذا حلَّ بإنسان أهلكه .. فقد كان رحمه الله تعالى يبين أن العبد الصالح هو ذاك الذي يكون في « خلوته » .. بعيداً عن الْخَلْق .. أفضل حالاً وأكثر إقبالاً على الله مما هو في « جلوته » .. حيث يراه الناس .. يقول رحمه الله تعالى :

« **لا تكن وليّاً لله في العلانية وعدوه في السرّ ، ولا تكن عدوّ إبليس والنفس والشهوات في العلانية وصديقهم في السرّ ، ولا تكن ذا وجهين ، وذا لسانين ، فتُظْهر أنك تخشى الله ليحمدوك .. وقلبك فاجر!** » .

❁ ❁ ❁

ويرشد أبو عمرو من يطلب رضوان الله عزَّ وجلَّ .. إلى الهروب من خصال مهلكات ، وخاصة : « **تسويف التوبة** » و « **التعلق بأمنيات الشيطان** » و « **التطلع إلى غير الله تعالى بالعمل الصالح** » ، وما أروع موعظته وهو يحذر من موبقات الأعمال :

« عباد الرحمن! ، يقال لأحدنا : تحب أن تموت ؟ ، فيقول : لا ، فيقال له : لِمَ ؟! ، فيقول : حتى أعمل ، فيقال له : اعمل! ، فيقول : سوف أعمل .

فلا يحب أن يموت ، ولا يحب أن يعمل! ، وأحب شيء إليه أن يؤخِّر عمل الله ، ولا يحب أن يؤخِّر الله عنه عَرَضَ دنياه! .

عباد الرحمن! ، إن العبد ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله .. وقد أضاع ما سواها ، فما زال يمنيه الشيطان ، ويزين له ، حتى ما يرى شيئاً دون الجنة ، مع إقامته على معاصي الله! .

عباد الرحمن! ، قبل أن تعملوا أعمالكم فانظروا : ماذا تريدون بها ؟ ، فإن كانت خالصة فامضوها ، وإن كانت لغير الله فلا تشقّوا على أنفسكم ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، فإنه يقول : ﴿ ... **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ... ﴾ [فاطر : ١٠] .

ولم يكن الإمام بلال بن سعد مُغَلِّباً لجانب الخوف على الرجاء .. على الرغم من كثرة التخويف وتقريع الغافلين في مواعظه .. يدل على ما نذكر قصة طريفة رواها الإمام الأوزاعي رحمه الله فقال : « **خرج الناس بدمشق يستسقون ، فقام فيهم بلال بن سعد فقال : يا معشر من حضر ، ألستم مقرّين بالإساءة ؟ ، قالوا : نعم ، فقال : اللهم إنك قلت : ﴿ ... مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ... ﴾ [التوبة : ٩١] ، وقد أقررنا بالإساءة ، فاعف عنا واغفر لنا . فقال : فَسُقُوا يومهم ذاك** » .

❁ ❁ ❁

ونختم الحديث عن التابعي الزاهد أبي عمرو رحمه الله تعالى بباقة من كلامه الرائع الجميل ، تذكرة لنا وإرشاداً إلى أخلاق كريمة وإنابة صادقة :

❁ **الذكر ذِكران : ذكرُ الله باللسان .. حسنٌ جميل ، وذكر الله عند ما أحلَّ وحرّم أفضل .**

❁ **أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله ، وأخبرك بعيبٍ فيك ، أحبّ إليك من أخ كلما لقيك وضع في كفك دينارا.**

❁ **أيها الناس! ، إنكم لم تُخلقوا للفناء ، وإنما خُلِقتم للبقاء ، ولكنكم تنتقلون من دار إلى دار .. كما نُقِلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الجنة أو النار .**

❁ **رُبّ مسرورٍ مغرور ، ورُبّ مغرور لا يشعر ، فويل لمن له الويل وهو لا يشعر ؛ يأكل ويشرب ، ويضحك ، وقد حقّ عليه في قضاء الله أنه من أهل النار! ، فيا ويلٌ له روحاً ، ويا ويلٌ له جسدا !! ، فلتبكِ ولتبكِ عليك البواكي لطول الأبد ..**

❁ **إن الله ليس إلى عذابكم بالسريع ، يقبل الْمُقبِل ويدعو الْمُدبِر! .**

❁ **لا تنظر إلى صِغَرِ الذنب .. وانظر إلى من عصيت .**

❁ **من بادأك بالوُدّ .. فقد استرقَّك بالشكر .**

❁ **إذا رأيت الرجل متحرجاً ، لحوحاً ، مماريا ، معجباً برأيه ، فقد تمت خسارته .**

❁ **وكان ابن سعد رحمه الله يدعو ربه فيقول :**

« **اللهم إني أعوذ بك من زيغ القلوب ، ومن تَبِعات الذنوب ، ومن مُرديات الأعمال ومُضِلاّت العين**».

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

صِلَةُ بنُ أَشْيَم

عرف جيل التابعين صلةَ بنَ أشيم العدوي بالفضل والورع ، والإقبال على الشعائر التعبدية ، وبالزهد فيما في أيدي الناس ، وامتاز على كثير من أقرانه برحمة الخلق ، وبدعوتهم إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومن ذلك أنه كان « يؤثر الإشارة على صريح العبارة » ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وكان يرى أنها كافية وافية في إيصال المعنى المقصود لمن كان له قلب .

❁ ❁ ❁

ذكر الإمام ابن كثير في « البداية والنهاية » قصة لطيفة وعدَّها من مناقب صلة رحمه الله ، وحريّ بالدعاة إلى الله تعالى في زماننا أن يتأملوها وأن ينسجوا في تعاملهم مع المسرفين على منوالها ، تقول القصة :

« كان يمر عليه – أي على صلة – شباب يلهون ويلعبون ، فيقول : أخبروني عن قوم أرادوا سفراً ، فحادوا في النهار عن الطريق ، وناموا الليل ، فمتى يقطعون سفرهم ؟ . فقال لهم يوماً هذه المقالة ، فقال شاب منهم : والله يا قوم إنه ما يعني بهذا غيرنا ، نحن بالنهار نلهو ، وبالليل ننام! . ثم تبع صلة فلم يزل يتعبد معه حتى مات » .

❁ ❁ ❁

وكان صلةُ يفقه قول الرسول ﷺ : « **مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ ، وَمَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ** » رواه مسلم وأحمد عن عائشة رضي الله عنها ، وقوله ﷺ : « **يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ** » رواه مسلم .

والقصة الآتية تبين عمق فقه صلة لخلق الرفق في الدعوة إلى الله عزَّ وجلّ :

قال ابن كثير : « ومر عليه – أي على صلة – فتىً يجر ثوبه ، فهمَّ أصحابه أن يأخذوه بألسنتهم ، فقال : دعوني أَكْفِكُمْ أمره . ثم دعاه فقال : يا ابن أخي لي إليك حاجة . فقال : وما حاجتك ؟ . قال : أن ترفع إزارك . قال : نعم ، ونعمت عين ، فرفع إزاره . فقال صلة : هذا أمثل مما أردتم ، لو شتمتموه لشتمكم » .

إن الاندفاع إلى إنكار المنكر ، من غير التزام بأصول الدعوة إلى الخير ، سمة تُرى في « **فقهاء اللسان** » في كل عصر ، فلا يظنن ظانٌ أن هذه النابتة سمة زماننا! .

أما « **فقهاء الجنان** » فإنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ملتزمين بالمنهج الرباني وبمقاصده ، ومنها: « الحرص على كسب القلوب » . فإذا تمّ كسبها فإن أصحابها يستجيبون لدعوة الخير والصلاح بسهولة ويسر .

فليت شعري! كم نحن في حاجة إلى رجال ربانيين في علمهم ، يفقهوننا قول صلة « **هذا أمثل مما أردتم ، لو شتمتموه لشتمكم** » .

❁ ❁ ❁

ويضرب صلة لنا مثلاً رائعاً في تدبر قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ... ﴾ [التحريم : ٦] وذلك من خلال القصة الآتية :

« كان صلة في غزاة – نحو بلاد فارس – ومعه ابنه ، فقال له : أي بُني! تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قُتل . ثم تقدم صلة فقاتل حتى قُتل . فاجتمع النساء عند امرأته معاذة العدوية ، فقالت : إن كنتن جئتن لتهنينني فمرحباً بكن ، وإن كنتن جئتن لتعزينني فارجعن » .

ما أعظمك في الرجال يا صلة !! .. لقد تعلمت فعملت ، وأدّبت ابنك فأحسنت تأديبه ، حتى كان رفيق جهادك بالسنان ، واعتنيت بزوجك فلما احتاجت إلى الأخلاق .. ومنها خلق الصبر والسلوان واحتساب مصيبتها عند الله عزَّ وجلَّ .. كانت مثلاً يُقتدى به .. ألا ما أروع قولها : « إن كنتن جئتن لتهنينني فمرحباً بكن ، وإن كنتن جئتن لتعزينني فارجعن !! » .

❁ ❁ ❁

ونختم حديثنا عن صلة بن أشيم رحمه الله بخبر تحمل كلماته المعاني التي ساعدت صلة على التحلي بفضائل الأخلاق . « **قال رجل لصلة : ادع الله لي . فقال : رغَّبك الله فيما يبقى ، وزهَّدك فيما يفنى ، ورزقك اليقين الذي لا يركن إلا إليه ، ولا يُعول في الدين إلا عليه** » .

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

ملاحظات: